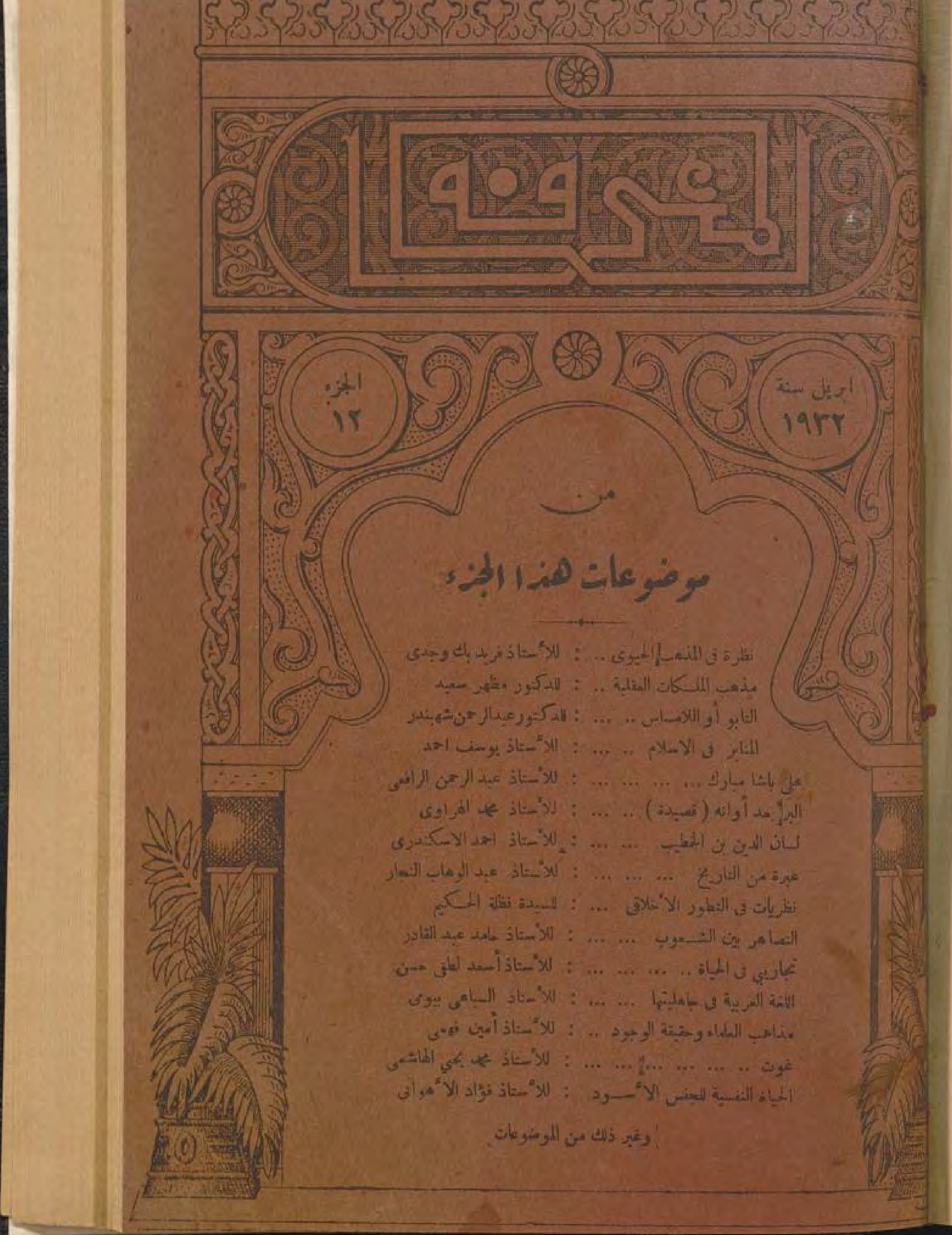


المعرفة

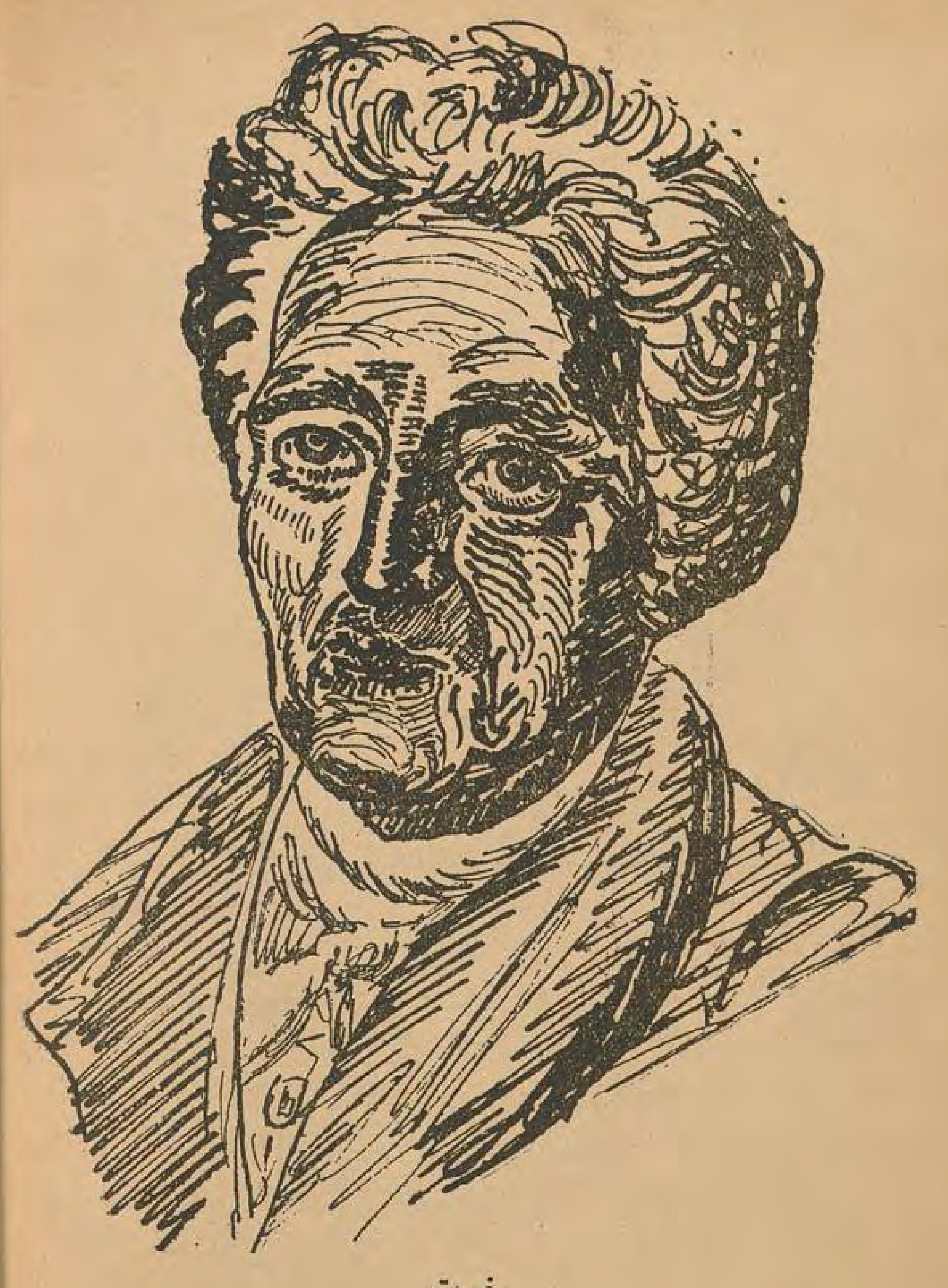
ابريل سنة ١٩٣٢

الجزء ١٢

من

موضوعات هذا الجزء

تليفون المجلة
رقم ٥٨٩٦٥



غوت

بمناسبة مرور مائة عام على وفاته

راجع صفحة ١٥٠٢

أول ابريل سنة ١٩٣٢
ذو القعدة سنة ١٣٥٠



الجزء الثانى عشر
السنة الأولى

مجلة — شهرية — جامعة
لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول
عبد العزيز الإسلامبولي

المجلد الثانى — شعارها : اعرف نفسك بنفسك

خاتمة السنة الاولى

نختتم سنتنا الأولى بحمد الله على ما أسبغ علينا من نعمته ، ورعايته لعملنا منذ بداءته ، ونشكر حضرات الكتاب الذين آزرونا بآثارهم الأدبية القيمة ، والمشتركين الذين ساعدونا على اجتياز الأزمة المالية ، الضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها ، وكذلك نشكر حضرات القراء الذين شجعونا باقبالهم ، مما جعلنا نستبشر خيراً ، بالرغم مما صادفنا من عقبات مادية ، وما تحملناه من خسائر مالية .

وإن ننس، فلن ننسى - بحال أبدا - أن نشكر حضرات الزملاء الأفاضل الذين شدوا أزرنا بما كتبوه عن مجلتنا باستمرار ؛ وإن كان ولابد من التخصيص، فليكن لحضرات زملائنا فى الشرق الذين أبوا إلا أن يسجلوا علينافى صحفهم، مكرمة فوق مكرمة ، وحسنة بعد حسنة .

وإذا كان الله قد حقق « للمعرفة » ما كانت ترجوه فى أول جزء من أجزائها ، فصارت عاملا قوياً على بعث الثقافة الشرقية ،وأصبحت منتشرة فى معظم أنحاء العالم الشرقى،وجزء ليس بالقليل من أنحاء العالم الاوربى والامريكى ، فذلك من فضل الله وحده .

وإذا كان لابد لنا من وضع برنامج للمستقبل ، عما نعتزمه من تجديد وتحسين، فحسبى أن أقول: إن المستقبل بيدالله، فهو وحده كفيل بالتوفيق؟

المحرر

لعل حضرات المشتركين الذين لم يسددوا قيمة اشتراك السنة الاولى ، يتفضلوا بتسديدها وعلى حضرات الراغبين في تجديد الاشتراك يرسلون القيمة فوراً ، وللجميع الشكر

الادب المصـــــــــــــرى

بين التردى والنهوض

فى الشرق عامة ، وفى مصر خاصة، نزعة وثابة للأخذ بسبيل الاصلاح والتجديد ، ورغبة ملحة لتقويم الناتىء من كل قديم : إن بتصفيته وتهذيبه ، أو تنقيته وتشذيبه ، بغية مجاراة الزمن الذى يأبى إلا التطور ، ونزولا على حكم العصر الذى نعيش فيـه .

لـكن تلك النزعة المتوثبة ، أو هاتيك الرغبة الملحة ، ماتلبث الواحدة منهما ظهوراً ، أو تبدو طلائعها متلاحمة ،آخذا بعضها برقاب بعض، حتى تقابل بالصد والاعراض آنا ، أو ترمى بالاثم والعدوان آ نا آخر .

وهذا الاثم والعدوان، أوذلك الصد والاعراض ، مصدره فئة من الناس ـ لا يخلو منها عصر من العصور ـ ألفت البقاء على القديم، والانتصار لـكل ما يمت بصلة إلى القديم ـ أيا كان نوعه ـ دون نظر إلى النافع والضار منـه، أو تفريق بين الصالح والطالح فيه ؛ ومن ثم تـكون الفوضى المطلقة ، ويصبح الاصلاح، فى بادىء الأمر ، عسيرا أو متعسراً، لاضابط له يحميه ، ولا نظام يقيه .

وقد يبدو لأول وهلة أن أنصار القديم فى النهاية منتصرون، وأن أشياع التجديد مندحرون، لـكن الأمر على النقيض من ذلك ، إذ ثبت العكس، وأصبح مقرراً فى علم الاجتماع أن الفكرة، أيا كان نوعها ، تخلق لها أنصارها وأعوانها ، مهما لاقت من قيود، أوصادفت من عقبات؛ ولسنا الآن بصدد التدليل على صحة ذلك، فقد أوضحنا الأمر فيه منذ سبعة شهور . (١)

قد يفهم القارىء لأول وهلة مما تقدم ، أننا من أنصار الجديد، بل قد يفهم أننا من أشد أنصار الجديد وأعوانه ؛ ولسنا نتحرز ممن يفهمنا على هذا النحو ، وإن كنا فى الحق لا نميل إلى اعتناق كل جديد على إطلاقه دون قيد ولا شرط، وإنما نريد ألا يعمم التجديد فى جماع المسائل وأمهات الأمور إلا بمقادير يسيرة ، لا تخرجها عن منطقها ومألوفها ؛ ومن هذه المسائل التى نقصد : الأدب العربى الخالد، الذى يجب أن يبقى له اسمه ووسمه، مادام فى العالم ناطق بالضاد؛ وفى تفصيل ما أجملنا نقول :

قامت منذ سنوات معدودات فئة تدعو إلى تمصير الأدب العربى ، أو خلق أدب قومى، فصفق لها جماعة من المتأدبين ، وهلل لها جمهرة من الشباب المتحمسين ، ولا ضير فى هذا كله ما داموا للعربية حافظين ؛ لـكن إلى جانب هذه الفئة ، قامت فئة أخرى تدعو إلى خلق أدب مصرى خالص، لايمت إلى الأدب العربى بصلة ، ولا يرتبط والعروبة بوشيجة أو نسب ، وقد

---

(١) راجع مقال (حرية الرأي وأنصار الجمود) فى الجزء الخامس من هذه المجلة.

أخذت هذه الفئة الثانية تروج لدعوتها بكل مافيها من قوة وحماس ، واستغلت — أكثر مما استغلت الأولى — روح الشباب المتوثب، وتغنيه بمآثر أجداده القدماء ، وترداده لكلمات: الوطن، والوطنية ، ومصر ، والمصرية ، وما إلى هذه من أسماء ومسميات .

ونود الآن أن نقرر لأصحاب هذه الفكرة الجديدة ، فكرة الأدب المصرى الخالص ، أن فكرتهم على ما بها من جدة، لا تقوم على أساس على صحيح؛ فهذا الأدب المصرى الخالص، الذى ينادى به أشياعه ، ليس إلا أدباً زائفاً لا يعتمد على نفسه، وإنما يعتمد على غيره من الآداب؛ وما من شك فى أن الأدب المصرى فى لحمته وسداه، ليس إلا الأدب العربى مهذباً، والتفكير العربى ممصراً ، فان أبى أصحاب الدعوة إلا الانكار، فليدلونا عن اللغة القومية التى بها يكتبون، فان كانت: الهيروغليفية ، أو القبطية ، أو العامية المصرية — وهذه هى اللغات المصرية — سلمنا لهم بما يدعون، أما إن كانوا يسجلون خواطرهم، ويرسمون أحاسيسهم، بغير لغة من تلك اللغات، فذلك هو المنطق المعكوس بعينه ، والشىء الذى لا يصح فى الأذهان؛ وإنما الذى يستقيم والمنطق ، هو أن لنا أدباً عربياً مصريا: عربياً من حيث اللغة والانشاء ، مصريا من حيث التفكير والأسلوب .

وبعد، فان أخلاق الناس ، ودقة نفوسهم ، وحدة أذهانهم ، ولون العيش الذى يعيشون، وأساليب الحياة التى يحيون ، وروح الفن الذى يتذوقون ، أمور لا تظهر فى صورة واحدة، ولا يمكن تبيانها إلا فى الأدب وحده ، ومن الأدباء وحدهم، سواء أكانوا كتاباً أو شعراء أو مفكرين ؛ وهؤلاء لا يمكن لهم أن يؤدوا الرسالة التى يحملون، مالم يتذوقوا اللغة التى بها يكتبون ، ويلموا بأسرار البلاغة التى بها يتحدثون، ويحفظوا من تاريخ آبائهم وأشعار أجدادهم وتدرج منثورهم مابه يسجلون ؛ فهل يوجد فى مصر الآن ذلك الكاتب أو هذا الشاعر الذى يستطيع أن يؤدى تلك الرسالة بلغة مصرية، أو فى بلاغة قبطية؛ أو فى تورية عامية ، لنستطيع أن نسميه الكاتب المصرى، أو الشاعر المصرى، بالمعنى الذى يجب فهمه من إطلاق الصفة على الموصوف؟

أحسب أن هذا الكاتب أو ذلك الشاعر لا وجود له إلا فى أدمغة الخياليين من المتأدبين وأشباه المتأدبين؛ ولمثل هؤلاء يجب أن نعرفهم أن الكاتب أو الشاعر الذى لا ندرك منه نظام حياتنا الاجتماعية، وأحاسيسنا ومشاعرنا النفسانية، لا يكون كاتباً ولا شاعراً بحال.

ذلك لأنك تستطيع أن تدرك نظام الحياة وما شابهها من أحاسيس ومشاعر، وإدراك وعادات، وتفكير وأوضاع - سواء أكانت ألمانية أو انجليزية أو فرنسية - من الكاتب الفرنسى أو الشاعر الألمانى أو الروائى الانجليزى ، دون إجهاد فى التفكير أو إمعان فى الاستنتاج، وآية ذلك ماتتبينه من الخلق الثورى فى الشعب الفرنسى من كتابات كتابه وشعرائه: كفيكتور هوجو، وجان جاك روسو، وفولتير، وأناتول فرانس وأمثالهم .

وهذا الذى تجده من قراءتك للأدب الفرنسى، إن كنت من قرائه، تجده فى الأدب الألمانى، متمثلا فى جوت وبتهوفن وفجنر وأترابهم من شعراء الألمان، وإنما بصورة أخرى تخالف الأولى، فهنا ترى الروح الجرمانى الحربى المتأصل فى نفوس الشعب الألمانى، وكذلك تستطيع أن تدرك خلق الرزانة السكسكونى من قراءتك لأمثال شكسبير وملتون وولز وبرنارد شو وغيرهم، تستطيع أن تدرك ذلك كله، وإن لم تسافر إلى فرنسا أو ترحل إلى ألمانيا أو تبرح إلى انجلترا، وهذا هو الأدب القومى الذى يمثل لك أصدق تمثيل خوالج البيئة الموضعية، قبل أن يمثل لك روح الجماعة العام.

وإذن، فالأدب القومى، عند التحقيق، أدب موضعى خالص، لا يترجم إلا عن الحياة الفردية لمجتمع بالذات، ولا يبحث إلا فى العواطف الموضعية لبيئة بالذات، فان تعدى هذه الحدود والأوضاع، يصبح أدباً عالمياً بقدر ما يخفق لواؤه على أنحاء المعمور التى تخضع لهذه الجماعة أو ذلك الشعب الذى نشأ فيه، ومن ثم يتلون فى كل بيئة أو أمة ينزل بها، شيئاً فشيئاً، حتى يكتسب بهذا اللون اليسير نوعاً من القومية المحلية.

مثالنا على ذلك: الأدب العربى القديم، فما من شك فى أنه كان أدباً قوميا بحتاً فى بداءته، فأنت تلمس هذه القومية فى دواوينهم وأشعارهم وأخبارهم، فتعرف أى نفوس كانت للعرب، وأى أخلاق كانت تتخلق، وأى خصال كانوا يتحلون؛ وهذه كتب القصص على ضؤولتها وقلتها، بل تلك الحكايات والأمثال العربية على قصرها وإيجازها، كفيلة بأن تطلعك على ما كان للعرب من قلوب واعية، ونفوس ملتهبة، وأعصاب متينة، وأخلاق قوية. تستطيع أن تلمس هذا كله من قراءتك للأدب العربى القديم، ولكنك لا تستطيع فهمه من الأدب الحديث إلا فى القدر اليسير منه، وهو القدر الذى يتصل بالقصة بعض الاتصال، وما ذلك إلا لأن الأدب العربى كان فى بداءته أدباً قومياً، فلما انتشر الاسلام — والعربية لغته — خفق علمها فى أكثر البلدان التى نزلت بها، فتلون أدبها، فى كل مكان حطت فيه رحالها، باللون المحلى الضئيل، ومن ثم أصبح أدباً عالمياً: بمرور الزمن، وتعدد الملل والنحل، الناطق أهلها بالضاد.

نخلص مما تقدم ومما يأتى إلى أمرين رئيسيين:

أولهما: عالمية الأدب وقف على انتشار لغته، وهى كلما انتشرت، كلما راجت سوقها الأدبية ونفقت منتوجاتها الفكرية، وهذا ما يحاوله الانجليز الآن، ويعملون فى سبيله جادين مستميتين.

ثانيهما: قومية الأدب لا تقوم بغير لغة قومية خاصة، ولا تعدو جماعة بالذات أو شعبا بالذات، كالأدب الزنجى الذى لا نظن أن له مثقال ذرة من الشهرة فى العالم، فهل نود أن يكون هذا نصيب أدبنا العربى، ونحن احفاد العرب، وبلدنا كعبة آمال الناطقين بالضاد، وملتقى الشرق بالغرب؟

نحن لا نمانع مطلقاً فى أن يكون لنا أدب قومى نعتز به ونفخر ؛ ولكن على أساس لا يتنافى والمعقول ،وما أحسب ذلك الأساس معقولا — بالنسبة لنا — فى غير اللغة العربية ،لغة آبائنا وأجدادنا منذ ثلاثة عشر قرناً أو تزيد ، أفنهدر هذا الكنز الثمين لقاء شعوذة ضعفاء العقول ممن لا يستطيع أكثرهم قراءة بيت واحد من الشعر قراءة عربية صحيحة، بقدر ما يستطيعونه فى قراءة ضخام المؤلفات من مؤلفات الفرنج ؟ أجدر بهؤلاء أن يقبعوا فى دورهم ليتذاكروا لغة آبائهم، ويتدارسوا تاريخ أجدادهم، فذلك بهم أحق وأجدر إن كانوا يعقلون، وأكثر إفادة من دعوى فارغة لا يستطيعون الدفاع عنها، لا بفصيح القول، ولا صحيح العبارة، وأنا قمين بأنهم فى اليوم الذى ينتهون من تلك الدراسات سيكونون أول المدافعين عن العرب والعربية، والذائدين عن بيضتها، ويومئذ نستطيع أن نعقد لهم زعامة الأدب ، وأن ندين لهم بالطاعة إن كانوا منتجين ، ويومئذ نتخلص من ذلك الصنف الذى يفزع إلى المؤلفات الغربية أو العربية القديمة، وأخصها كتب القصص ، فيسلبونها أرواحها ، ويسرقونها آثارها ، ثم يذهبون فى الناس شامخى الأنوف، رافعى راية العصيان على الأدب العربى، مدعين فى غير ما صدق ولا ولاء، أنهم أتوا للأدب المصرى بجديد.

وبعد، فليست دولة الأدب مستباحة الحرمة لا حراس يحمون زمارها ، ولا أعوان يذودون عن بيضتها، حتى يسلبها هؤلاء تاجها ، وينقضوا عليها انقضاض الصاعقة ، ولكن لها ناموساً لا تجرؤ أية قوة فى الأرض على ثلم كرامته، أو انتهاك حرمته، فهل يعقلون؟

إن كنتم يا هؤلاء ! تودون للأدب المصرى، أو الأدب القومى - إن شئتم - نهوضاً ونجاحا، فاطلبوهما فى لغة العرب، ومؤلفات العرب، ولا ضير عليكم فى نحت ما لا يستسيغه العصر الحاضر، وصوغه فى قالب لفظى آخر ، بل لا ضير عليكم فى إدخال كلمات العالم جميعاً ، بعد صياغتها الصيغة العربية اللازمة، وهذا إن عجزتم عن كلمات أصيلة العروبة .

جددوا فى اللغة بقدر ما تستطيعون ، فما اللغة إلا كائن حى خاضع لناموس التطور والارتقاء ... لكن ! إياكم وتجاوز الحدود؟

عبد العزيز الاسلامبولى

المعرفة فى عامها الثانى

ستصدر «المعرفة» —باذن الله — فى الشهر المقبل

فى حلة جديدة، لمناسبة دخولها فى عامها الثانى

نظرة في المذهب الحيوى

للأستاذ محمد فريد وجدى بك

ألممنا فى مقالتنا المنشورة فى الجزء التاسع من هذه المجلة، بأشهر المذاهب فى الحياة، وقد تبين للقراء أن المذهب المادى فيها قد اضمحل كل الاضمحلال، وحقر أمام المشاهدات حقارة قضت على أكبر أشياع المادية أن يبعدوه عن مجال البيولوجيا، وهو إذا لم يكن له حظ من هذا المجال فقد قضى عليه بالزوال قضاء لامرد له.

نعم، لأن مؤدى المذهب المادى هو أن تعلل جميع ظواهر الموجودات بعلل مادية باحتة، لادخل لشىء أرقى منها فى إيجادها؛ فاللجوء إلى ذكر شىء اسمه الحياة مجهول الأصل وذى خصائص تتسلط على المادة فتحيلها من حال إلى حال يشل من حركة المذهب المادى، ويحط من قدره، ويتأدى به إلى الزوال.

أليس قول العلامة (لودانتك) ـ وهو من أكبر أشياع المادية فى هذا العصر ـ: إن لكل خلية حياة خاصة تتألف من مجموعها الحياة العامة للكائن الحى، منافيا للمادية منافاة صريحة ويعتبر من الاقوال غير المفهومة؟ فهو يوافق جميع البيولوجيين فى أن الحياة سر مكنون لم يتوصل إلى إدراكه العقل البشرى إلى اليوم، فكيف نسمح لأنفسنا حيال مجهول ضخم من هذا الطراز أن نحكم عليه بحكم، أو أن نحصره فى دائرة ضيقة من خيالنا؟ ثم بناء نظريات على هذا الحكم لاتعتبر جريئة فحسب، ولكن تعتبر غير معقولة أيضاً؛ فعلى أى نظام تتألف حياة عامة من مجموعة لاتحصى من حياة خاصة، فتتألف منها شخصية ذات أغراض معينة، واتجاهات متلائمة؟ فالحيوان الذى يفترض أن شخصيته العامة مؤلفة من شخصيات خلايا جسمه يجب أن يفقد من شخصيته بقدر مايفقد من جسده؛ فكان ينبنى على هذه النظرية: أنه لوقطعت يداه ورجلاه وعاش بعد ذلك عاش فاقدا الجزء من شخصيته يساوى الاعضاء التى فقدت منه، والمشاهد غير ذلك. فمذهب لودانتك مهدوم من أساسه، ولايجوز الاعتداد به مادام لا يؤدى إلى حل يثلج الصدر عليه، أو يتفق والمعلومات المقررة فى مجال البيولوجيا.

أما قول العلامة (أرنست هيكل) الالمانى، من أن كل خلية لها روح تدبرها، ولكنها لاتشعر بوجودها، فمن أغرب الاقوال وأدعاها للحيرة، فكيف تكون روحا مدبرة ولاتشعر بوجودها؟ أليس التدبير يستند على التعقل، والتعقل يقوم على النظر والتأمل؟ فكيف يعقل أن يكون كل ذلك ولا يكون من نتائجه شعور بالذات؟ وإذا كانت روح الخلية لاتشعر بذاتها فكيف تدبر أمرها، وتقود حياتها؟.

لندع هذا الآن جانبا، ولننظر فى أقوال العلامة (توماس هكسلى) الانجليزى، فقد ذهب فى تأييد مذهب (جون هنتر) القائل بأن الحياة هى علة وجود الاجسام إلى أبعد حد، وضرب

لنا مثلا بالحيوان الدنىء المسمى بالأميب، فقال: إنه مجرد من الأعضاء ومن الأجزاء المحدودة، ومع ذلك فان فيه المميزات والخصائص التى للحياة الكاملة، حتى إنه ليستطيع أن يبتنى لنفسه نواقع ذوات تراكيب معقدة أحيانا وعلى غاية ما تمكن من الجمال.

هذا قول لا يصح أن يقرأ قراءة سطحية، ويترك بدون نظر ونقد، فان الحكم بأن الحياة هى علة وجود الاجسام الحية، لا أنها نتيجة لها، هدم المذهب المادى من أساسه، فهو يقتضى أن يكون فى الكون أصل يقال له الحياة، حتى يصح القول بأنها هى التى تبتنى الاجسام الحية، وكان الماديون يقولون قبل ذلك بأن الحياة هى نتيجة التركيب المادى، وقد بناه هنتر وهكسلى وغيرهما على المشاهدات، لا على مجرد الترجيح العقلى؛ وذلك أن الحيوان المسمى بالاميب من الكائنات المجردة عن الأعضاء التى كانت تظهر أنها مواطن للتفكير كالمخ والاعصاب، فهو أشبه بكيس ليس فيه أعضاء محدودة، وقد قلبه بعضهم فجعل باطنه ظاهره فلم يحدث فيه ذلك تأثيراً سيأ، بل استمر على الحياة كأن لم يفعل به شىء، ومع خلو هذا الحيوان الدنىء من كل مظاهر الاجسام المركبة، نجد له جميع مميزات الحياة وخصائصها: كالتأمل والتعقل والتدبير، حتى انه ليبتنى لنفسه قواقع ذوات تراكيب معقدة، وعلى جانب عظيم من الجمال ... فكيف هذا كله من حيوان مجرد من الاعضاء، وخاصة من الاعضاء التى يظن أنها مركز للتعقل والتدبير؟ ألا يدل هذا على أن للحياة أصلا عاما، فاذا حل بحيوان فلا يبالى أكان له أعضاء تعقل أم لم يكن، لأنها هى المدبر العاقل لا الحيوان نفسه، فتؤتى هذا المكان الحى بجميع حاجاته حتى إنها لتبتنى له قوقعة مركبة، وتحليها له بالمواد الملونة ليرتاح إليها النظر إذا وقع عليها؟

إن هذا أمر مدهش ومحير للعقل فى آن واحد.

نعم! إننا ندهش من رؤيتنا حيوانا دنيئا تصدر عنه أعمال لا تصدر إلا من الانواع المرتقية، وليس له أعضاؤها ولا تجاربها، ومحير للعقل لأننا لو أسندنا للاصل الحيوى العام المنبث فى الكون التعقل والتدبير، فقد حملنا كاهل الفلسفة وقراً لا تقوى على حمله فى حالتها الراهنة، ولا تجرؤ على تحمل تبعتها، فأن مثل هذا القول يقتضى أن يكون الاصل الحيوى مدركا لنفسه، لأن التدبير وإيتاء كل فى حاجته لا يأتى من غافل ولا ذاهل؛ ولكن التسامح فى هذا القول يقلب الفلسفة رأسا على عقب، ويفتح للظنون والخيلات بابا لا يمكن سده بوجه من الوجوه.

وما حيلتنا فى ذلك، وهو مبنى على المشاهدة؟ فان لم تستطع الفلسفة أن تفسره، فعليها أن تعترف بالعجز عنه، والاعتراف بالعجز حيال الأمور الضخام أدعى للاهتداء إلى فهمها من تفسيرها تفسيراً سطحياً، وبذل الوسع فى التدليل عليه.

أما وقد بلغنا إلى هذه المرحلة، فقد وجب علينا أن نرجىء الكلام فيها إلى الاجزاء المقبلة من السنة الثانية «للمعرفة» إن شاء الله، لأن خوض عبابها يقتضى وضع مقدمات موجزة تجلو غامضها، وهذا لا يمكن أو يكون على عجل، ولا فى مقالة واحدة، والمسألة أهم مسائل الفلسفة على الاطلاق؟

محمد فريد وجدى

مذهب الملكات العقلية

وأثره فى التربية والتعليم

للدكتور محمد مظهر سعيد
أستاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

وصلت فى البحث السابق(١) عن أثر مذهب الملكات العقلية فى التربية، وكيف اتخذه الفلاسفة أساساً للتعليم إلى جماعة الانسانيين ؛ وسأتناول الآن آراء المربى الألمانى المجتهد (فروبل) صاحب الطريقة المعروفة لتعليم الاطفال، والتى يصح أن يقال عنها، فى شىء من التساهل، إنها أول طريقة عملية، بنيت على الملاحظات الشخصية والتجارب العملية ، لا على النظريات الفلسفية وحدها .

نظر (فروبل) إلى التربية على وجه العموم، وإلى العلوم التى تهيء الناشئة للنوع الذى يرتاح إليه من التربية والتعليم؛ نظرة فلسفية مشبعة بروح الاخلاص للدين، فجعل العلوم وسيلة لادراك مبلغ قدرة الخالق وتفهم أسرار الطبيعة ، ومن ثم وسيلة لمعرفة الله والتقرب إليه ، فهو يقول فى الرياضيات: « يحتاج الانسان إلى نقطة ثابتة ودليل أمين يرشدانه لدراسة الارتباط الثابت بين مظاهر الطبيعة المتغيرة ؛ ولا يكون هذا بغير الرياضيات التى تبدو للعين المدققة كأنها المنبع الذى تتفرع منه كل هذه المظاهر والقوانين التى تتحكم فيها ، وهى بعبارة أخرى كما يظهر من أصل اشتقاق إسمها اليونانى «علم الحفظ» وهى الوسيط بين الانسان والطبيعة ، بين الفكر المتجرد والاحساس المادى ، بين العلم الباطنى والعلم الخارجى الظاهر ؛ ولذلك كانت ولن تزال دائما على رأس العلوم ، وهى كذلك من الصفات اللازمة للدين الصحيح ؛ فالمسيحية وحدها هى التى تظهرها للانسان فى ثوبها الحقيقى،وتضعها فى مكانها اللائق بها ، والمسيحى هو وحده الذى يستطيع أن يقدرها حق قدرها، لأنه يرى وحدة الأله الواحد الأحد فى كل مظاهر الطبيعة المتغيرة » (٢)

وبعد أن يسترسل فى هذا الأسلوب الدينى يعزز حكمه عليها بقوله : « فالرياضة إذن تتوسط بين العلوم والمعارف وتوحدها وتولدها ، وليست الرياضة بعلم جامد ولا مادة محدودة ، وليست بمجموعة صيغ منفردة ، ولا حقائق متفرقة عثر الانسان على كل واحدة منها منفردة بمحض الصدفة؛ ولكنها وحدة حية تتجدد باستمرار، وتتبع تطور العقل البشرى،وتتمشى مع نموه بالنسبة للوحدة والتعدد ، ومن ناحية التأمل والتبصر؛ ولكنها مع هذا ليست من الحياة القائمة

---

(١) راجع العدد العاشر من «المعرفة» (٢) كتاب تربية الانسان طبعة أبلتون.

أو شيئاً مستمدا منها ، وإنما هى الحياة بذاتها »(١)

أما عن اللغة فقد تحايل تحايلا غريبا بقوله: « إن اللغة هى المظهر الخارجى الايجابى الفعال للمشاعر الباطنة » مدللا على هذا بأن أصل كلة الكلام (SPRECHEN) مشتقة من كلمتى (S—PRECHEN) أى تجزء الذات وانفصالها وإظهار الخفى عن طريق الظاهر ، ولم يقل بهذا أحد على الاطلاق من علماء اشتقاق اللغة الألمانية .

ثم يستمر فى قوله : « كما أن الطبيعة هى مظهر العقل الالهى، فكذلك اللغة هى مظهر العقل الانسانى، بل هى مظهر الانسان والطبيعة وروح الله مجتمعة معاً ، ولها صفات العلوم الرياضية والطبيعية من حيث الحركة والحياة ؛ فهى فى حروفها وسواكنها وكلماتها تكشف الصفات والعلاقات الأساسية بين الطبيعة والروح ، كذلك إخراج الاصوات يتبع قوانين محدودة ثابتة: رياضية وفسيولوجية وفيزيقية وسيكولوجية » (٢)

ثم هو يعتبر اللغات: الالمانية، واليونانية، واللاتينية ، بمثابة الروح والحياة والبدن (٣) . وهو فى هذا أشد مايكون تعصبا للغته الأصلية ؛ ويقول عن الابجدية قولا خيالياً غريباً ، منها أنها توصل الانسان إلى أعلى درجات الكمال الارضى وأكملها ، وعن الكتابة: إنها أسمى مظهر للشعور الحر الفعال . (٤)

ويرتاح (فروبل) إلى نتائجه هذه، فيأبى إلا أن يحشر الفنون فى العلوم السابقة حشراً فيقول: «إنها تمس الرياضيات من ناحية واللغة من ناحية ثانية ثم الدين من ناحية أخرى» (٥) ؛ ولكنه يتنبه إلى تعذر شرح هذا الارتباط بيداجوجيا ، أو الطريق التى يسلكها المعلم لايجاد هذا الربط، أو الفائدة التى يجنيها المتعلم منها ، فيقول فى الصفحة التالية: « ولكن مع هذا كله — أى الارتباط الثابت فى نظره — فان الفنون يجب أن تعلم لذاتها » ثم يلخص كلامه كله فى هذا الصدد بقوله : « لما كان من الضرورى أن يكشف الله سر وجوده للناس كشفا كاملا لا لبس فيه ولا غموض ، كان لزاما أن يكون هذا بالكيفية الثلاثية عن طريق الرياضة واللغة والفنون، فتكون هذه الثلاث وحدة كاملة، تتطلب معرفة إحداها معرفة الأخرى » .

فأنت ترى من كل هذا أنه أخرج العلوم عن معناها الحقيقى وفائدتها العملية، ونظر لها من ناحية الدين الممثل لطبيعة الله، والفكر الممثل لطبيعة العقل البشرى، والنظام الممثل لطبيعة الكائنات .

المدرسة الانجليزية :

وانتقل المذهب من المانيا إلى انجلترا فتأثر به فلاسفتهم ورجال التربية فيهم ، فتجد (جون استورم) يبالغ فى قيمة اللغتين اليونانية واللاتينية أشد مبالغة؛ و (آشام) البيداجوجى

(١) صحيفة ١٠٤ و ١٠٦ (٢) صحيفة ٢١١ (٣) صحيفة ٢١٧ (٤) صحيفة ٢٢٥ (٥) صحيفة ٢٢٦

يضع اليونانية فوق جميع العلوم ويشير بجعلها أساساً للتعليم فى جميع المدارس،حتى (ملتون) العظيم يصرح فى خطابه إلى (صمويل هارتليب) بأنه يرى التعليم مستحيلا بدونها، واقتنع اساتذة كلية (أوين) بهذا الرأى : فنفذوه فى مدارسهم وساروا عليه مدة طويلة .

وكذلك نحا الفيلسوف العظيم (جون لوك) نحو (منتاجيو) ونادى بتفضيل اللاتينية وجعلها أساساً عاما للتعليم ، وأشار بأن يعطى التلاميذ فى كل يوم شيئاً من اللاتينية يحفظونه عن ظهر قلب، ولو لم يفهموا معنـاه ، حتى تقوى فيهم الاراده والذكاء والقـدرة على حـل المشكلات (١) .

حتى الفيلسوف (هربرت سبنسر) لم يسلم من الوقوع فى هذا الخطأ ، فقد صرح فى الكثير من آرائه ومؤلفاته عن التربية بأن دراسة بعض العلوم تقوى العقل على وجه الاجمال وتصقل ملـكات النفس .

الجزويت :

اقتبس الجزويت فى فرنسـا تعالـيم « ستورم » ولـكنهم شوهوها وغالوا فى تطبيقها ، فاقتصروا على دراسة اللاتينية وما يتعلق بها فى السنين الثلاث الأولى من مدارسهم كعلم أساسى، وزودوها بشىء قليل من اليونانية واللاهوت؛ وكان عمادهم فى التعليم: الذاكرة الصماء، والحفظ عن ظهر قلب ، أما باقى العلوم فـكانت اختيارية يتعلمها الطلبة من تلقاء أنفسهم فى أوقات فراغهم وأجازاتهم السنوية لتقوية الملاحظة ليس غير .

القرن التاسع عشر :

جاء القرن التاسع عشر بنزعته المتطرفة للتجديد والتبديل، وإعادة النظر فى كل النظم والتعاليم القديمة، فتقمص مذهب الملـكات من جديد، بعد أن كادت تقضى عليه حملات الفلاسفة أنفسهم، والحدثين من علماء النفس التجريبى، وتشبث أنصارهم بمذهب تهذيب العقل، ورأوا أن يكسبوا كلامهم صبغة علمية بيداجوجية فزعموا أن القدرة التى يكسبها العقل بمرانه على علم من العلوم أو عمل عقلى خاص تنتقل إلى العلوم أو القوى العقلية الأخرى،لأن العقل بهذا المران الخـاص يكتسب المرونة ، فيعمم ما يكتسبه من قوة ونشاط فى ناحية خاصة على باقى النواحى . ويلخص العالم الأمريكى (ثورن دايك) مزاعمه فى النقط الآتية :-

١ - إن التحسن الناتج من تمرين العقل،من تـكرار عمل معين ، ينتقل إلى أعمال أخرى قد تخالف نوع العمل الأول الذى تمرن عليه .

٢ - إن التحسن الناتج من دراسة علوم معينة تقوى الملـكات لدرجة كبيرة الأثر .

٣ - إن للعلوم جميعها أثرا تهذيبياً، وإن اختلفت القيم النسبية لهذه الآثار اختلافا بينا ؛ ولما

---

(١) أفكار فى التربية .تحرير كويك. طبعة كمبردج سنة ١٨٨٦
JOHN LOCKE—THOUGHTS ON EDUCATION .

كانت الرياضيات واللغات هى أقوى العلوم فى نظرهم ، فقد حددوا لكل علم قيمة تهذيبية خاصة منسوبة إلى هاتين المجموعتين، تبين نسبة ماتحدثه هذه العلوم من تحسين القوى العقلية العامة إلى الرياضيات واللغات . (١)

ونكتفى فى هذا الصدد بالجدول الآتى :

الحساب ومسك الدفاتر ٢ر٠٩ ـ الكيمياء والطبيعة والعلوم العامة ٢ر٠٦ ـ الهندسة والجبر وحساب المثلثات ٢ر٠٣ ـ اللاتينى والفرنسى ١ر٠٦ ـ التربية البدنية ٠ر٠٧ ـ التاريخ والموسيقى والرسم صفر .

ونشط رجال علم النفس التجريبى لبحث هذه المزاعم بحثا عمليا بحتا ، فوجد بعض المتقدمين منهم شيئا من الصحة ، فتجد أن (كوكس) مثلا استنتج من بحثه الذى قدمه للدكتوراه أن تقدم طلبة السنة الأولى الذين يدرسون اللاتينية فى الهجاء الانجليزى بلغ مرة ونصف مرة من تقدم الآخرين المساوين لهم، من الذين لا يدرسون اللاتينية ، وأنه من السهل أن ترتفع هذه النسبة إلى ثلاث مرات .

كذلك وجد (نيومان) و (أيبرت) من النتائج ماحملهما على القول بأن الذاكرة تقوى بتمرينها على أى علم من العلوم وخصوصا باللغات والعلوم البحتة ، أما الرياضة فانها تقوى الذكاء، لأن المنطق الرياضى المكتسب من هذه الناحية ينتقل إلى كل النواحى الأخرى ، وكأن (نيومان) قد اطمأن إلى نتائجه هذه، فانتقل بمذهب الملكات من دائرة التفكير إلى دائرة الأرادة فقال: إن العلوم بما فيها التربية البدنية لاتقوى العقل فقط، ولكنها تقوى الانتباه وتخلق الأرادة ؛ ولكن الثقة بنتائج هذه المباحث المتقدمة ضعيفة إلى حد التشكك فيها بالنسبة لقلة عدد الاشخاص الذين أجروا عليها تجاريبهم، والطرق الرياضية التى استخدموها للوصول إلى هذه النتائج ، أما نتائج المعاصرين لهم والمتأخرين عنهم، التى أجريت فيها التجارب على عدد كبير من الناس، واستخدمت فيها الطرق الرياضية الصحيحة، فتكاد تكون قاطعة لاتقبل الشك، وكلها تقضى ببطلان هذه المزاعم؛ فقد وجد (كيربى) مثلا أن دراسة اللاتينية لاتؤثر أى تأثير فى تعلم اللغة الفرنسية، وهى لغة اللاتينية، أكثر من الانجليزية. وكذلك وجد (بروكلر) أن تقوية المدارك والعادات المنظمة والتفكير الصحيح وغير ذلك، مما ينسب لمجرد دراسة اللاتينية، يرجع إلى عوامل أخرى لا دخل للاتينية فيها.

وغير هذا مئات من التجارب التى قام بها العلماء المجتهدون فى كل زعم من مزاعم هذا المبدأ، أو فى كل ناحية قد يكون له دخل فيها؛ وعسانا نوفق إلى تناول هذا الموضوع فى فرصة أخرى ، ولكن يكفى أن نقرر هنا أن نظرتنا الآن إلى العلوم المدرسية تختلف اختلافاً كلياً

. [1] THORNDIKE-MENTAL DISCIPLINE— J.ED.PSY.15-1424-P.1-22,83-89.

عن نظرة السابقين ، فلكل علم قيمته النفعية، وقيمته التثقيفية العامة، كما أن له قيمته التهذيبية، ولذلك لا ينبغي أن يدرس علم في مدرسة، أو يدرج في منهج نوع معين من التعليم، لمجرد اعتقادنا أو اقتناعنا، عن طريق الملاحظة الشخصية والتجربة، أنه يقوى ملكة معينة، وإنما يكون المعول على قيمته التثقيفية فى ذاته، إن كانت لا تتم ثقافة المرء بدونه، أو فائدته في الحياة العملية، ونحن نرى من الجدول التالى أن الهندسة، ولو أن قيمتها التهذيبية عشرون، والأشغال اليدوية اثنى عشر فقط ، إلا أن الثانية كعلم مدرسى أفضل من الأولى بكثير، لأن مجموع قيمها الثلاث ثلاث وأربعون، فى حين أن مجموع الهندسة ثمانية وثلاثون:

العلم	القيمة التهذيبية	النفعية	التثقيفية	المجموع
هندسة	٢٠	١٠	٨	٣٨
جبر	١٩	٩	٨	٣٦
لاتينى	١٧	١٠	١٤	٤١
طبيعة	١٧	١٨	١٢	٤٧
العاب رياضية	١٧	١٢	٧	٣٦
كيمياء	١٣	١٩	١١	٤٣
أشغال يدوية	١٢	٢٣	١٠	٤٥
رسم	١٠	١١	١٥	٣٦ (١)

ولكن على الرغم من اقتناع علماء النفس والتربية المحدثين بفساد المذهبين : مذهب الملكات العقلية ومذهب التهذيب أو انتقال التحسين ، فلا يزال الكثير من أفاضل الناس والعلماء وأساتذة الجامعات والمدرسين يقولون بقول القدماء ، كأن المذهب القديم لا يجاهد فى سبيل حفظ كيانه ، كما تجاهد الكائنات الحية فى معترك الحياة ، فتبقى منه بقية فى عقول الناس، ولو كمجرد آراء فردية بعد أن كانت حقائق علمية مزعومة؛ وقد أجريت مباحث كثيرة فى هذا الموضوع ، ووجهت الأسئلة إلى عدد عظيم من رجال التعليم وغيره، نكتفى منها بهذا القدر القليل :

١ـ يقول (توماس) إن رأيى فى القيمة التهذيبية للعلوم لم يتغير، ولن يتغير، وأنا موقن من خبرتى الطويلة للتعليم، أن بعض العلوم تشحذ ذهن التلاميذ، وتساعدهم على التفكير الصحيح، وخصوصاً اليونانى واللاتينى ثم الرياضيات (٢)

٢ ـ وجه الدكتور (هارفى ويلى) إلى أعضاء مؤتمر الأدبيات الذى انعقد فى (متشيجان)

[1] STARCH—THE ESTIMATED VALUE OF SCHOOL SUBJECTS--SCHOOL & SOCIETY.No5-P. 59-60

[2] THOMAS—OLD FASHION DISCIPLINE—G.OF THE ASS.OF COLLEGIATE ALUMNAÊ—MAY.1917.P. 588

سنة ١٩٠٩ سؤالا عن أهمية اللغات القديمة ، فوصلته ردود خمسة وثلاثين عضواً: أربعة عشر منها فضل أصحابها دراسة اللاتيني واليوناني ، وأربعة فضلوا اللاتيني ورفضوا اليوناني ، وسبعة عشر تشككوا فى الاثنين .

٣ ـ بينما يقول الأستاذ (بيجلو) إن الرياضيات واللغات أداة التفكير العلمى الصحيح ، يقول الأستاذ (نيف) من جامعة شيكاغو : إنه يأسف للوقت الذى أضاعه فى دراسة اللاتينية واليونانية .

٤ ـ يوصى الكثيرون من رجال الأعمال الحرة بتعلم اللغات القديمة: فالمستر (وليم سلون) من كبار تجار نيويورك يقول بأن اللغات القديمة تؤهل الانسان لأن يكون تاجراً عظيما ، والمستر (فوستر) عضو مجلس النواب الأمريكى يقول : إنها ضرورية لكل محام ونائب برلمانى .

٥ ـ وكذلك حبذ ثلاثمائة من أعضاء مؤتمر الآداب ، الذى عقد بجامعة برنستون سنة ١٩١٧ دراسة اللغات القديمة وآدابها . ولكنا مع هذا كله يكفى أن نقول مع الأستاذ (ستارش) إن الآراء الفردية لاقيمة لها فى موضوع على كهذا ، لأن آراء الناس عامة والذين لم يدرسوا الفلك على الخصوص ، عن شكل الأرض لن تغير من شكل الأرض الحقيقى ، وإن هذ النوع من الاستدلال فى القضايا العلمية لمن الخطورة بمكان .

٦ ـ وليس المدرسون بأقل تأثراً من العامة بمذهب التهذيب ، فقد سأل (ثورنديك) مائة مدرس عن ترتيب العلوم حسب قيمتها التهذيبية فى نظرهم ، فقال ثمانية منهم: الفلسفة ، وعشرة: الانشاء الانجلزى ، وستة عشر : الرياضة ، وسبعة: الالعاب الرياضية ، وهو يغتفر لهم هذا بقوله إن المدارس ما دامت تدار بالآراء الفردية ، فرأى جماعة من المدرسين أفضل من رأى مدرس واحد (وإن كانت كلها تخالف العلم) على أن هذه الآراء كلها يظهر فيها التحيز الشنيع ، لأن كل مدرس وضع العلم الذى يدرسه على رأس القائمة .

٧ ـ وتتلخص مزاعم مدرسى اللغات عن قيمة الأجرومية التهذيبية فى أنها :(ا) تهذب العقل (ب) تعد التلاميذ لدراسة اللغات الأخرى (ج) تجعل التلميذ متمكناً من مفردات اللغة (د) تصلح لغة المتعلم (هـ) أنها مفتاح الأبيات .

ونحن وإن كنا نقبل بعض هذه المزاعم فى شىء من التحفظ ، فانا نرفض بتاتاً تقرير لجنة العشرة التى ألفت سنة ١٨٩٣ لدراسة الأجرومية ، القائل بأن فائدة الأجرومية هى فى تقوية التفكير لا فى القراءة والكتابة ، وكذلك المزاعم التى لخصها (برجز) كما يأتى : « إن قواعد اللغة تساعد على ملاحظة أوجه: التشابه ، والتضاد ، ونقد التعاريف من الناحية المنطقية ، والوصول إلى التعاريف الصحيحة ، وتقوية التفكير ، والتعليل ، والحكم ، والتريث فيه ، وتطبيقه فى علوم أخرى

كالرياضات وغير هـذا من المزاعم والدعاوى العريضـة التى لايقول بها أى مدرس حديث من مدرسى اللغات (١)

٨- أما العلوم فمزاعمهم فيها تتلخص فيما يلى :

(أ) إنها تنمى عادات خاصة عظيمة القيمة كالتفكير والنظام والعمل الدقيق .

(ب) تسـاعدعلى تحصـيل المعلومات النافعة عن طريق الدراسة المنظمة والتدريب .

(ج) تـكسب المبادىء العالية بما تبثه فى نفوس التلاميذ من رغبة فى تلمس مظاهر الطبيعة بأنفسهم والاتصال بهامباشرة .

(د) تساعد على حل المسائل غير العلمية، وتذليل الصعوبات وتحقيق الأغراض السامية .

(هـ) تربى ملكة الذوق وتقدير الجمال وحب الانسجام وإدراك الوحدة والنظام فى الطبيعة.

(و) تقوى التفكير الفلسفى والعلمى .

(ز) وأخيراً تربى الدقة فى الملاحظة والأمانة فى التعبير .

وحكمنا على هذه الدعاوى العريضة هو نفس حكمنا على سابقتها .

ومن الغريب أن يشير بعض نظار المدارس المحترمة فى انجلترا وأمريكا بزيادة حصص اللاتينى، وينفذوا هذه الفكرة بالفعل فى مدارسهم، كما فعل (كلارك) والبعض الآخر يفعل هذا فى الهندسة، لأن هذه العلوم — فى نظرهم — أفضل العلوم، أو لأن دراستها تقوى العقـل فى جميع النواحى، وتعود الانسان الصبر والجلد والدقة فى العمل ، حتى قال بعضهم بضرورة تعليم لغة صعبة كالروسية مثلا فى المدارس، لا لقيمتها الفعلية ، وإنما لتهذيبها للعقل كما فعل (بسمارك) ، أو يفضلها على الفرنسية لسهولتها كما فعل (تارفر) ، حتى أساتذة كمبردج العلماء الفطاحل كانوا إلى عهد قريب جداً ينادون بضرورة تدريس اللغات القديمة تدريساً وافياً، لأنها تهذب العقل، ولو كانت الطريقة التى تدرس بها آلية ، ولذلك تجد جامعة كمبردج على رأس الجامعات التى تعنى بتدريس اللغات أكثر من باقى الفروع الأخرى .

وخلاصة هذا البحث: أن أمثال هذه الأقوال وغيرها مما يدين به الـكثير من المدرسين والمربين وواضعى البرامج فى مصر، لم يخرج عن حد الزعم، وليس لها أى نصيب من الصحة ، فمن الواجب أن لا تدرس العلوم فى مدارسنا المصرية، أو توضع المناهج محشوة بمختلف المواد، لمجرد اعتقاد واضعى هذه البرامج، ومدرسى هذه العلوم أنها أفضل من سواها لتقوية الملكات العقلية، وتهذيب العقل على وجه العموم، ومن الواجب أن تقدر العلوم لقيمتها العملية أولا، ثم التثقيفية إذا استلزم الأمر ، أما التهذيبية فلا ؟

محمد مظهر سعيد

---

(1) BRIGGS:FORMALENGLISHH GRAMMAR,ASA DiISCIPLINE—TEACHERS COLLEGE RECORD.No. 41

التابو أو اللامساس

بقلم الدكتور عبد الرحمن شهبندر

حدث لى ولرفيقى المرحوم السيد توفيق الحلبى أحد المجاهدين الذين استشهدوا فى الثورة السورية الكبرى ، أننا بعد المجازر التى قام بها أحمد جمال باشا السفاح وأعوانه من طغام الاتحاديين، اضطررنا إلى مغادرة دمشق الشام، فوصلنا فى أواخر سنة ١٩١٥ إلى مدينة (الهيت) على نهر الفرات، حيث استأجرنا قارباً وطلبنا العتبات المقدسة: كربلاء، والنجف، والكوفة، لأنها كانت فى ثورة على الادارة العسكرية ، فلم يكن للاتحاديين فيها سلطة ؛ وكان صاحب القارب رجلا من عوام الشيعة من قبائل « المعدان » التى تعيش على الشاطىء واسمه حسين، وهو فى نحو العقد الخامس من العمر، بعين واحدة، ولا يختلف زيه عن زى الفلاحين الاعتياديين فى مصر كثيراً ؛ فلما جرى القارب على الماء وقاربت الشمس المغيب، قام وطبخ طعاماً من (التمن) وهو الأرز العراقى، و(الهرطمان) وهو شبيه بالعدس ، فلما نضج دعانا للاشتراك معه وهو يقول ويقسم الايمان على مايقول: إنه لايتأفأف من الأكل معنا أبداً ! ففاتت هذه النكتة صديقى لأنه كان فى بحر من التفكير، كيف يستطيع أن يأكل من تلك الحلة القذرة والملاعق الصدئة ؟ فشكرت لحسين الملاح تسامحه كثيراً ، وقلت له إنه من أهل العصر البعيدين عن التعصب! وهمست فى أذن رفيقى قائلا : إن إخواننا الشيعة على شاطىء الفرات هم من الغلاة الذين يأخذون بظاهر الآية « إنما المشركون نجس» وهم يحشروننا فى زمرة هؤلاء المشركين، لأننا آمنا بخلافة أبى بكر وعمر، ولم ننتصر لأهل البيت الانتصار اللائق، فنحن والحالة هذه رجس بكل مافى هذه الكلمة من المعانى المستكرهة ؛ وفى الحق إن فى هذا الموقف لشيئاً من المهازل الاجتماعية ، فالملاح كان يحارب وجدانه ويقهر عاداته فيما تنزل إليه من دعوتنا إلى مشاركته فى الطعام، ونحن كنا نفكر فى انتحال الأعذار للنجاة من قذره والخلاص من ملاعقه .

والمقصود من سرد هذه الواقعة ليست المهازل الاجتماعية، وهى كثيرة تحيط بنا فى حياتنا من كل جانب ، بل هذا التنجس الذى يشعر به إخواننا الشيعة من كل من خالفهم، شعوراً محمولا على المعنى المادى المحسوس، كما يشعر جماعة غاندى الهندوكيون عند ما يجتمعون بطائفة الأنجاس أو المنبوذين من أبناء وطنهم ولا يقل عددهم عن سبعين مليوناً ؛ فهل أتانا هذا التنجس ياترى

فى جملة ماأتانا من العقائد الباطنية التى تغلغلت فى صدورنا، أم هو مظهر من مظاهر التابو التى سنعرض لها فى الكلام الآتى ؟

التابو : فمن عادة (الساويوريين) الدينية، وهم من سكان جزائر (بولينيزيا) فى المحيط الهادى، مثلا، أن الرجل منهم إذا أراد حماية ثماره : كجوز الكاكاو أو غيره ، وضع على الشجرة علامة تدل على نذر هذه الثمار للآلهة فلا يمسها أحد، وهذه العلامة تدعى فى لغة تلك البلاد (تابو) ومعناها فى معظم الأحوال «لامساس» ؛ وقد اصطلح علماء الانسان والاجتماع من الأوربيين على نقل هذه الكلمة بنصها إلى لغاتهم للمعنى الخاص الذى تؤديه ، فالتحريم الذى تفيده هذه الكلمة ليس التحريم الذى نعهده فى الشؤون الاخلاقية وما ترتكز عليه من تحبيب الخير وتبغيض الشر، بل هو تحريم خاص مشوب بشىء من الرهبة والتقديس والتلفف بالأسرار .

وكما يوضع التابو على الأشياء لمنع الاقتراب منها ومسها كما توضع إعلانات الخطر على أسلاك الكهرباء الثقيلة، كذلك يوضع على الكلمات لمنع استعمالها، وعلى الأعمال لمنع إتيانها ، وقد تكون الغاية منه الابتعاد عن النجاسة كما هو الحال فى: تحريم بعض المآكل، ومس جثث الموتى، والنظر إلى الحيض . أما الذين يحق لهم فى تلك البلاد أن يضعوا « التابو » فهم الأمراء أو الكهنة غالباً ؛ وشكل التابو عند البولينيزيين ــ وهم أكثر الناس استخداماً له ــ علامة أو وسم، وينتشر التابو فى الأقوام الابتدائية كثيراً، ولكن آثاره لاتزال ماثلة حتى فى أرقى الأمم.

وفيما يأتى مجموعة أخبار عن «التابو» استقيناها من دائرة المعارف البريطانية وغيرها من أمهات الكتب الوثيقة، فمن ذلك أن الأمراء البولينيزيين الذين يدعون أن سلسلة نسبهم الكريم تتصل بالآلهة يطلق عليهم الاسم « آدبى تابو » أى الأمراء المقدسين، فتفيد كلمة « تابو » هنا تحريماً مقدساً لايجوز مسه، وعلى العكس من ذلك كلمة « نوا » فانها تفيد العموم والاشتراك بدلا من التخصيص والانعزال ، والمثال على ذلك أن المرأة فى تلك البلاد قبل أن تتزوج توصف بكلمة « نوا » أى أنها حرة فى تصرفها ، طليقة يباح لها من العاشقين ماشاءت وشاء هواها، ولكنها متى تزوجت أسدل عليها ستار من التابو، فتحرم على جميع الناس إلا على زوجها.

ومن أدق قوانين التابو وأشدها تطبيقاً تابو الأموات ، فالذى يمس جثة ميت أو عظامه أو يشترك فى جنازته يطوق بالتابو، فقد حدث فى بلاد (التونجا) أن واحداً من الدهماء مس جثة أمير فحكم عليه بالحرمان التابوى عشرة أشهر قمرية ، والقاعدة فى بلاد (نيوزيلانده) أن القارب الذى ينقل جثة لايجوز استعماله ثانية، بل يجر إلى الساحل حيث يطلى بالبياض للدلالة على « اللامساس » .

ولا يزال العامة من الناس فى بلادنا يفزعون من لمس الميت ، ويظنون أن فى جثته شيئاً من التحريم الخاص مما يجعله شبيهاً بالتابو البولينيزى، أو ناشئاً عن الفكرة التى بنى عليها، وليس

هذا التحريم قائماً على ما فى الميت من مرض معد، فالخوف من العدوى بالمعنى الجرثومى شيء حديث العهد، بل يظن أن فيه سراً عجيباً يحول دون مسه .

ومن يتجاوز على حدود التابو فجزاؤه عظيم، حتى أن الملك فى جزائر (هاوابى) يعين رجلا من الشرطة، للبحث عمن يغفلون حق التابو، فيعاقبون بالاعدام إلا إذا كانوا من أهل المكانة أو كانوا كهنة أو أمراء، ولكن العقاب فى جزائر (فيجى) قلما يكون موتا، بل فى الغالب يكون نهباً ومصادرة فى الأموال والاملاك. والمثال على ذلك أنه لوسقط لوالد ولد فى النار، هوجم الوالد من جميع الأطراف وسلب متاعه وجميع ما يملكه، ويظن بعض الباحثين أن هذه العادة متسلسلة عن قبيلة (الديرى) فى جنوب أوستراليا، فمن عادتهم أن الولد من أولادهم إذا أصيب بكارثة ضربوا رؤوسهم بالعصى إلى أن يسيل الدم منها على وجوههم، وهم يظنون أن هذه العملية الجراحية تخفف عن الولد أوجاعه .

ومن قواعد قبائل (المركيزا) أن الرجل إذا ذبح عدواً له حكم عليه باللامساس عشرة أيام، يحرم عليه فى غضونها مس امرأته والاشتغال بالنار، فلا بد له والحالة هذه من طاه يطبخ له طعامه، وأى رجل من أهل المكانة حمل زاده على ظهره تسربل هذا الزاد بالتابو فأصبح محرما على جميع الناس، إلا على صاحبه، لأن حمل الأشراف زادهم على ظهورهم «متوب»، فكأن «التتويب» ينتقل بالعدوى من الاشخاص إلى الاشياء. والرؤوس وما يتدلى منها من الشعور، ولاسيما رؤوس الامراء، تتمتع بالشيء الكثير من اللامساس، فلمسها يعد إهانة لا تغتفر، وإذا مس أمير رأسه بأصبعه فعليه أن يقربها من خيشومه من غير إبطاء ليستنشق منها القداسة التى علقت بها من الرأس .

وتجوز إزالة التابو ورفع الحجر المنصوب على الاشياء، ففى بلاد (التونجا) إذا وقع رجل فى التابو بسبب مسه رأس أمير مثلا، فلا يحل له أن يمس الطعام مالم يمسح يديه بأخمص أمير أرفع من الامير الملموس، ثم عليه أن يبلهما بالماء، وإذا تعذر فبعصير الموز .

وقصارى القول: إن التابو على نوعين اثنين: نوع يكسب صاحبه نفعا، ونوع يجلب له ضرا، فذاك يجعل الاشخاص والاشياء طاهرة مقدسة، وهذا يجعلها رجسة مستقذرة .

وعلى القارىء أن يبحث عن أصل التابو فى الأوضاع الدينية لا فى الأوضاع المدنية، فهو ليس من عمل المشترعين، بل تفرع ونشأ على مهل من العقائد الاستراوحية الخالية، يعنى من عقائد «الانيميزم» وقد ساعد على انتشاره وتأييده، فيما بعد، طمع الامراء والاشراف والكهنة، وما لهم من المصالح، خذ على ذلك مثلا: إن بعض اللحم يقسم عند الاسرائيليين إلى (طاريف) و(كاشير) وقد يكون لهذا التقسيم سبب غير ما هو معروف، إلا أن الرسم المالى الذى يتقاضاه خدمة الدين

على الذبائح للتفريق بينها، قد ساعد كثيراً على بقاء هذه السنة عند اليهود حتى فى أرقى المدن الاوربية والاميركية .

على أن الخدمة التى أداها التابو للامراء والكهنة، لم تحل دون انتفاع المجتمع به انتفاعا جزيلا، فعلامة اللامساس التى توضع على الشجرة لحماية ثمرها، قد تكون أساس الشعور بحق التملك، وكذلك الحال فى اللامساس المنصوب على النساء المتزوجات، فقد يكون أساس شرعة الزواج، وقس على ذلك بعض الأوضاع الاجتماعية الأخرى التى ضاعت علينا مآخذها، ولكنها من غير شك نشأت فى الأصل عن فكرة التابو الخالية .

وفى بعض الكتب السماوية المنتشرة يوجد الشيء الكثير من قواعد اللامساس، فقد جاء فى الأصحاح السادس من سفر العدد من التوراة، كلام مسهب كأنه طلاسم السحرة، عن شيء يدعى النذير، وهو كما قالت دائرة المعارف البريطانية : يشبه التابو البوليذيزى جد الشبه ؛ فقد أمر موسى أن يقول لبنى إسرائيل: إنه إذا انفرز رجل أو امرأة منهم لعمل نذر للرب، فالنذير يجتنب الخمر والمسكر والخل المتولد منهما، ولا يشرب من نقيع العنب، ولا يأكل عنبا رطبا، ولا يمر موسى الحلاقة على رأسه، ثم إنه يربى خصل شعر رأسه إلى نهاية الأيام التى انتذر فيها للرب، ويكون مقدسا، ولا يأتى إلى جسد ميت ؛ أما إذا مات عنده ميت بغتة فنجس رأس انتذاره، فانه يحلقه يوم طهره فى اليوم السابع ؛ وينتهى النذر الاسرائيلى على طريقة التابو البولينيزى، وذلك بأن يحلق النذير رأسه عند مدخل خيمة الاجتماع المقدسة ، فيأتى اليه الكاهن ويضع على يديه طعاما ؛ وكلا هذين العملين يعد تجاوزا على التابو عند البولينيزين .

ومن العادات المستحسنه التى جرى عليها اليهود ومن بعدهم المسيحيون تجنب القسم بالله، وهذا مأخوذ من الكتاب المقدس، وليس من الصعب تدرجه من قواعد اللامساس، فقد عرفنا مثلا أن البولينيزيين لا يجلببون أربابهم وأمراءهم بالتابو فقط ، بل يتوسعون فى ذلك إلى جميع ما يتعلق بهم حتى إلى الأسماء والألقاب التى يحملونها، فلا جرم أنهم محرم عليهم أن ينطقوا بهذه الأسماء، كما يتورع الاسرائيلى عن القسم باسم (يهوه) ؛ وقد ارتقى هذا التخصيص حتى صار من المعيب فى المجتمعات الاوربية الراقية القسم بأى شيء إجمالا ولو بالشرف ؛ وأذكر فى عهد السلطان عبد الحميد أن الناس تهيبوا ذكر اسمه واسم أخيه المخلوع السلطان مراد ، فكانوا يطلقون اسم حميد بدلا من عبد الحميد ، ومرآت افندى بدلا من مراد افندى ،وقد حرم أحد أعيان الشام رتبة سنية للاسم الذى يحمله ، وهذا كله شبيه بالتابو البولينيزى؛ ومن مس جثة ميت عند اليهود فقد عد نجسا لمدة سبعة أيام، وتنتقل نجاسته إلى كل شيء يلمسه، وعليه فى ختام الايام السبعة أن يغسل لباسه ويستحم بالماء ليتطهر ، وكذلك النفساء فهى عندهم نجسة كما هى مجلببة بالتابو عند البولينيزين ، فلا يجوز الاقتراب منها، وهذا حال المرأة فى الطمث أيضا .

أما السبت فله عندهم قواعد دقيقة تتعلق بالمحافظة عليه والاستراحة فيه كما (استراح الرب في اليوم السابع) من خلق الخليقة، وهذه القواعد شبيهة بالتابو بالمعنى التحريمي، فقد حرم على اليهود فيه: العمل، وإشعال النار فى المنزل، وطبخ الطعام، والخروج من المنازل إلى مسافات معينة ؛ وفى التاريخ أن بومبى الكبير تغلب على اليهود فى القدس، لأنهم لم يسعوا لمقاومته فى يوم السبت، وأن أنتيوكرس الرابع السلوقى افتتح القدس عنوة لأنهم راعوا يوم السبت أيضا فلم يدافعوا عنها ، وهكذا خسروا موقفين فاصلين لعقيدة لامساسية .

ومع أن المسيح اجتاز فى السبت الزرع وقطف تلاميذه السنابل وهم سائرون وراءه، وأجاب الفريسيين لما غمزوه على تهاونه هذا وقلة اكترائه بقوله: « السبت إنما جعل لأجل الانسان، لا الانسان لأجل السبت » فاننا نرى الامم المسيحية، ولاسيما البروتستنتية منها تحافظ على السبت وهو يوم الاحد بالطريقة المثرية ، محافظة اليهود على سبتهم، حتى إننى فى سنة ١٩٢٤ كدت أبيت على الطوى أنا وزوجى، لأننا عدنا إلى لندن فى يوم الاحد متأخرين، فوجدنا المطاعم مقفلة « حرمة » لليوم الذى استراح فيه الرب، ومن المستغرب أن تكون هناك اليوم قضية تتعلق بالسينما والتشخيص فى يوم الاحد، وتحريم هذا وتحليل ذاك، كأن الممثل البارع يجوز له أن يظهر فى ذاك اليوم على ستار السينما، ولكن لا يجوز له أن يظهر على مسرح التمثيل، مما يدل على أن ليس الشرق وحده الذى يشتغل بالسفاسف، بل إن أعظم عاصمة فى أوربا فى القرن العشرين تبحث فى التابو وتشتغل بشؤون اللامساس .

وقد تحقق من الوجهة الاجتماعية، أنه كلما كثرت الموانع التابوية وانتشرت أصول اللامساس كانت المدنية وضيعة، لأن ذلك يدل على حاجة العائشين تحت كنفها إلى الحدود والحواجز. قال الاستاذ ديلى فى كتابه « الاجتماع » : « والمدنية المبنية على التحريم ، هى بالضرورة مدنية منحطة وابتدائية ، ويدل التابو على عصر قاصر لاعقل له ، وهو يحسب أن الناس بلغوا من الجهل والشر أنهم لايقومون بالحق ، لذلك يجب أن يمنعوا من عمل الشر بأمر أناس أرشد منهم عقلا وأحسن طينة »

عبد الرحمن شهبندر

تحذير

يحذر صاحب « المعرفة » حضرات : الكتاب ، والأدباء ، وأصدقاء « المعرفة » ، ومشتركيها جميعاً ، وأصحاب المسارح وغيرها ، من اعتماد أى شخص يتقدم إلى حضراتهم بدعوى تمثيلنا ، أو الاتصال بنا ، أو العمل معنا ، ما لم يحمل كتابا (مرفقاً به صورته) وموقعاً عليهما من صاحب المجلة ومحررها المسئول .



(رسم رقم ١ : منبر مسجد آق سنقر)

المنابر في الإسلام

وسبب اتخاذها في الجوامع

للأستاذ يوسف أحمد

تكلمنا في المقال الأول المدرج في العدد السادس من « المعرفة » عن وصف منبر الحرم المدني، وعن وصف منبر الحرم المكي، ثم أتينا على وصف بعض المنابر في مصر، وكيف كانوا يخطبون في الأرياف، وعن المنابر الخشبية الكبيرة المسدودة التي اتخذت في زمن الفاطميين والمماليك البحرية الأولى. ونتكلم الآن عن بعض المنابر الرخامية التي صنعت بمصر، وغيرها من المنابر الحجرية، وما يتعلق بالمنابر جميعاً من الخطابة والخطباء.

كانت المنابر — كما أسلفنا في المقال الأول — كلها خشبية، فكانت تسرق بعض قطعها الفنية البديعة، أو كان يعتريها التلف إذا ما طال عليها الأمد، ففكر المصريون أن يتخذوا المنابر من الرخام لمتانته، ولئلا يستطيع أحد أن يسرق منها شيئاً.

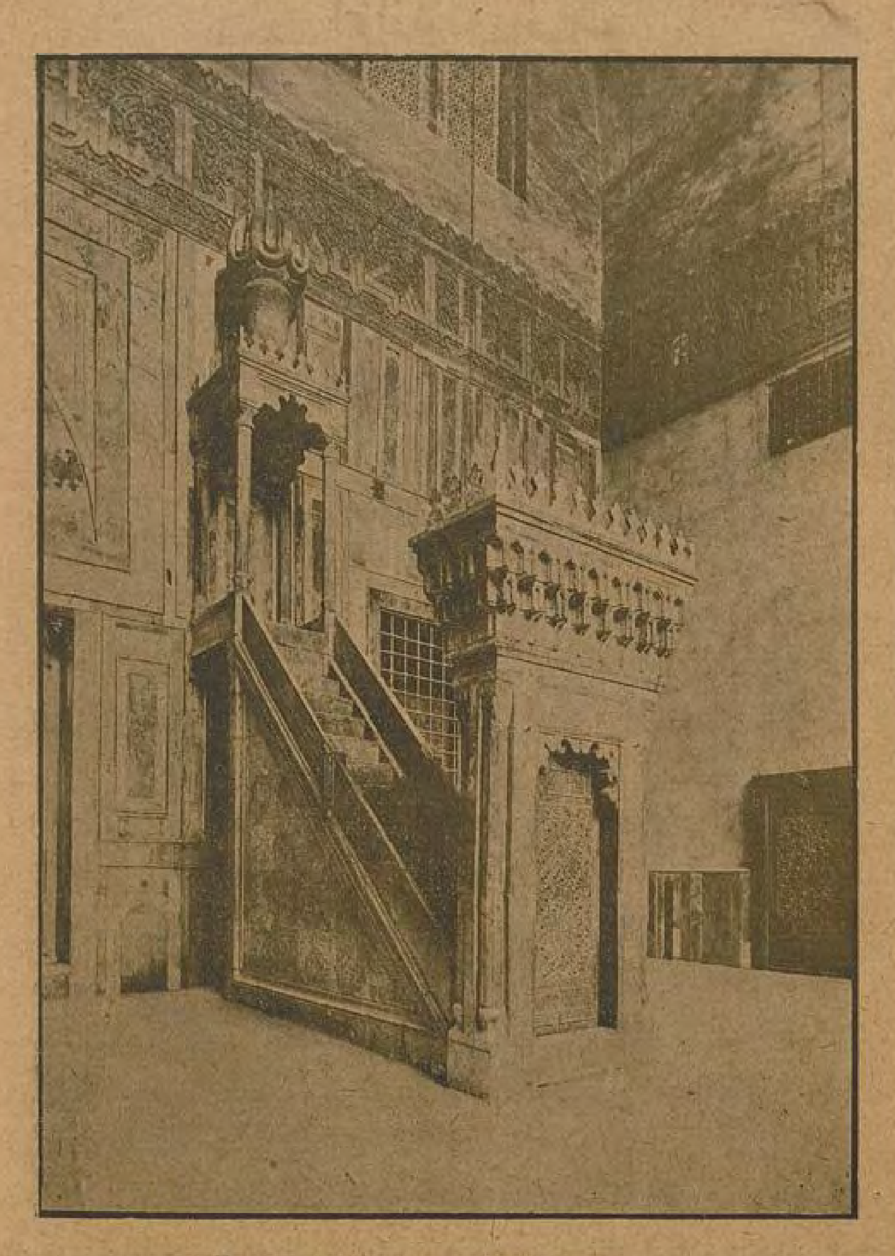
ولعل هذه الفكرة قد تسربت إليهم مما شاهدوه في منابر الكنائس، أو ما رأوه في منابر سوريا وفلسطين، مما سندرج له مقالا خاصاً.

وأقدم ما عرف من هذا النوع بمصر هو ما يأتي:

١ — منبر مسجد ايدمر الخطيري الكائن بشارع فؤاد الواقع بقرب كوبري أبي العلاء: أنشيء سنة ٧٣٧ هجريه (١٣٣٦ — ١٣٣٧ م) وقد عثرت لجنة حفظ الآثار العربية على الأجزاء الباقية منه بعد تخرب المسجد وأودعتها في دار الآثار العربية؛ وكان المنبر من الرخام ملبساً به قطعاً من رخام ذات ألوان بأشكال هندسية.

٢ — منبر مسجد آق سنقر الكائن بشارع باب الوزير بالقاهرة؛ أنشيء سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ويعرف بمسجد إبراهيم أغا مستحفظان، وبالمسجد الأزرق إشارة إلى كثرة ما به من القاشاني الأزرق البديع، وهو، أي المنبر، أحد آيات الفن العربي الخالدة. كما يرى في الرسم رقم (١)

٣ — منبر مسجد السلطان حسن بشارع محمد علي؛ أنشيء سنة ٧٥٩ هـ (١٣٥٨ م) وهو وإن كان أقل زخرفة من سابقه إلا أنه أكبر منه حجماً، وأعظم شكلا، وأحسن هندسة، وأدق صنعاً؛ ولاسيما وجهة بابه المحلاة بالنقش المعروف بالمقرنص البديع، وأيضاً ذروته العليا التي يجلس فيها الخطيب؛ وربما كان صانعها واحداً، أو أن الثاني نقل عن الأول كثيراً، كما يرى في الرسم رقم (٢)



(رسم رقم ٢ : منبر مسجد السلطان حسن)



(رسم رقم ٣ : منبر مسجد برقوق بالصحراء)

٤ – ولم يقتصر المصريون على صنع المنابر من الرخام الذى كان يستخرج بعضه من مصر، وبعضه يأتى إلى مصر من الخارج؛ ولكنهم عمدوا إلى تمصير هذه الصناعة تمصيراً كلياً، فاستطاعوا أن يصنعوا المنابر من الحجارة التى تستخرج بكثرة من جبال مصر. فكانت هذه المنابر لا تقل جمالا عن مثيلاتها من الرخام، ولكنها تفضلها بقلة تكاليفها، وقلة الزمن الذى ينفق فى صنعها. فصنع السلطان قايتباى المتوفى سنة ٩٠١ هـ (١٤٦٠ م) منبراً نفيساً لمسجد السلطان برقوق بالصحراء الشرقية من القاهرة، ونقش اسمه عليه فوق بابه المعروف بباب الروضة، كما أنه نقش جانبى المنبر بالنقوش الهندسية البديعة، كما يرى فى الرسم رقم (٣) والرسم رقم (٤)

٥ – ولما تغلب السلطان سليم على مصر وامتلكها فى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) أدخل الفن التركى البيزنطى بمصر، وطبع عماراتها بالطابع التركى الخاص، ويعرفه الفنيون والباحثون فى الآثار بمجرد النظر إليها.

ولم يقتصر الفن على تشييد العمارات فحسب، بل تعداه إلى المنابر أيضاً: فأول منبر عمل فى زمن الولاة العثمانيين بمصر هو منبر مسجد سليمان باشا المنشأ سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨–١٥٢٩م) بداخل قلعة الجبل – انظر الرسم رقم (٥) – ويعرف الآن بمسجد سيدى سارية الصحابى الجليل، كما هو الشائع على الألسنة، وكما ورد فى بعض الكتب مثل: رحلة ابن جبير، والمقريزى، وطبقات الشعرانى، وإن كنا لم نر فى كتب التاريخ الأخرى، ولا فى كتب الحديث أن سيدنا سارية الصحابى جاء إلى مصر، فضلا عن أنه مات بها (راجع أسد الغابة فى معرفة الصحابة).

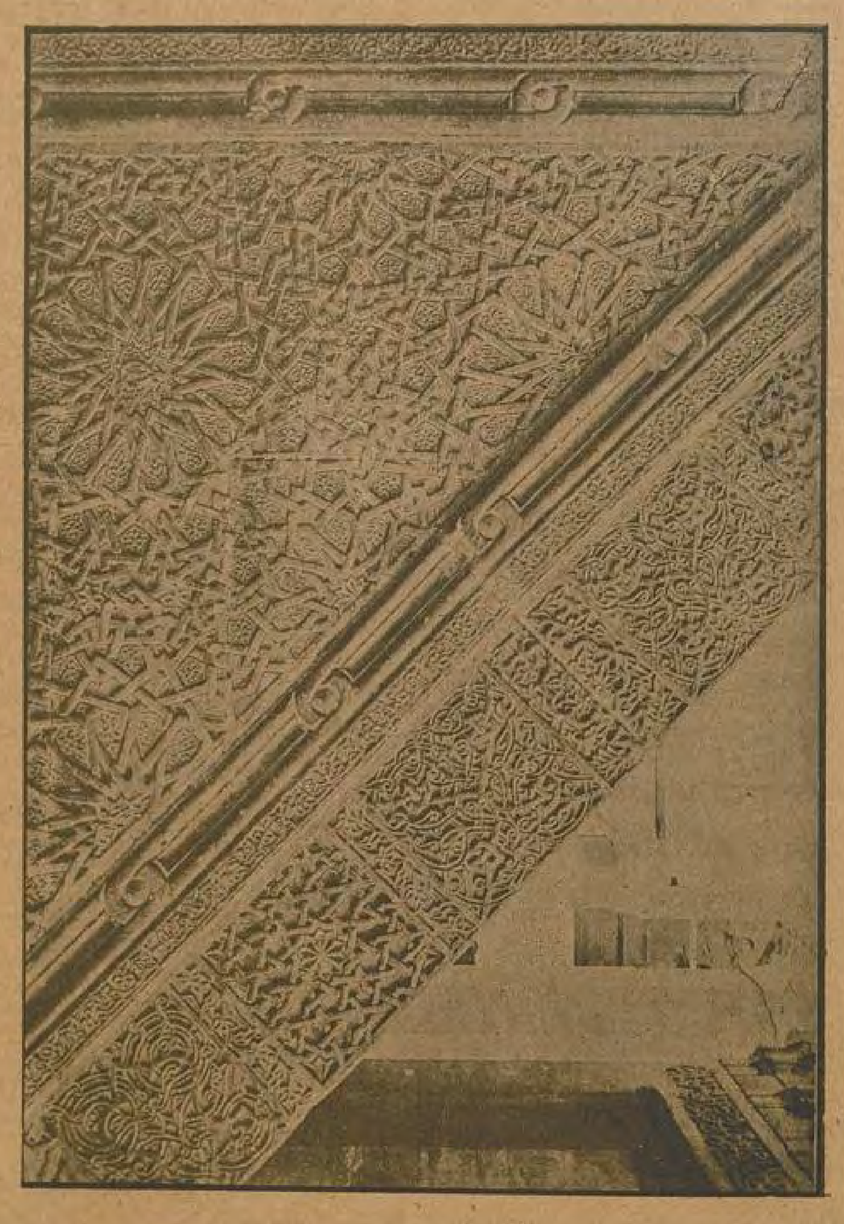
٦ – منبر مسجد الملكة صفية بشارع الداودية: أنشىء سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠م) وهو منبر حسن الصنع ذو رونق جذاب تتجلى فيه الصناعة التركية وبخاصة فى الدائرة المخرمة الموجودة بجانبى المنبر، وفى كرانيشه وشكله كما يرى فى الرسم رقم (٦)

ويجب أن يعرف أن المنابر لم تكن توجد إلا فى المساجد الجامعة، ولعله يناسب هنا أن نذكر أن عدد هذه المساجد فى مصر كلها كان فى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣–٩٤٤م) ١٦ مسجداً كما ذكره ابن عبد ربه فى كتابه «العقد الفريد»: وهى: مسجدان بالفسطاط يجمع فيهما العسكر حيث السلطان، والمساجد الباقية: بعين شمس، والفرما، والعريش، وبوصير، وتنيس، وشطا، ودبيق، واسكندرية، والقلزم، وايله، والقيس، والصفن، ودلاص، والفيوم.

وواضح من هذا أن القاهرة لم تكن بنيت فى هذا التاريخ لأنها أنشئت سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) كما هو معروف.

ولكن بعد ما بنيت القاهرة، لم تجىء سنة ٣٧٥ هـ حتى أصبح عدد المساجد الجامعة فى القاهرة ومدينة الفسطاط ستة مساجد كما رواه أبو عبد الله محمد بن احمد المقدسى المعروف بالبشارى فى كتابه «أحسن التقاسيم» الذى فرغ من تأليفه سنة ٣٧٥ هـ.

أما ما يتعلق بالمنابر: فمن ذلك ما رواه المقريزى من أن العزيز بالله جعل بجامع عمرو منبراً



(رسم رقم ٤ : جزء من جانب منبر مسجد برقوق بالصحراء)

مذهبا فى سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) ولم تكن المنابر قد ذهبت قبل ذلك .

كما أن أول من اتخذ كساء للمنبر بمصر الحاكم بأمر الله . وسبب ذلك أنه أخرج المنبر المذهب السالف الذكر إلى مدينة اسكندرية ؛ فأقامه بمسجدها واستعاض عنه لمسجد مصر بمنبر كبير فى سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ — ١٠١٥ م)؛ وفى ذات يوم من هذه السنة وجد هذا المنبر الجديد ملطخاً بالعذرة، فأمر بأن يصنع له كساء من أدم مذهب ، ثم وكل به من يحفظه لئلا يلطخ مرة ثانية . وأول من كسا المنبر على الاطلاق أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فقد كسا منبر الحرم المدنى قبطية، أى بقماش من صنع الأقباط بمصر.

أما ما يتعلق بالمنابر من الخطبة والخطباء، فقد ظل ولاة الأمصار والبلدان هم الذين يتولون الخطابة بالنيابة عن الخليفة إلى سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) فى مصر، حيث كان الوالى عتبة بن اسحاق، وهو آخر من ولى على مصر من العرب . وكان خلفاء العباسيين فى هذا التاريخ قد أسرفوا فى اتخاذ الأتراك بطانة وشيعة لهم وتركوا العرب ؛ فصاروا يجعلون منهم ولاة فى البلدان والأمصار، وكان أكثر هؤلاء يعجزون عن تأدية اللغة العربية الفصحى طبعاً، فصاروا يستأجرون من الفقهاء من ينيبونه عنهم .

ومن الغريب أن هذه البدعة هى التى استحسن العمل بها، حتى أن ابن طولون لما نشأ القطائع والجامع واستقل بمصر ظل أيضاً يصلى فى جامعه وفى جامع عمرو مؤتما بالامام الذى يستأجره للصلاة والخطبة ، وسرى على هذا المنوال غيره من أمراء دولته حتى بعد حرق القطائع سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) ، على أن التاريخ يحدثنا أن الفاطميين لما تغلبوا على مصر وأنشأوا القاهرة وبنوا الجامع الأزهر سنة ٣٥٩ هـ أعادوا الأمر إلى ما كان عليه أولا، وبخاصة فى شهر رمضان .

فكان الخليفة يؤم الناس فى الصلاة ، ويصلى بهم كل صلاة جمعة من شهر رمضان فى مسجد من هذه المساجد الثلاثة : الأزهر ، والأنور أى الحاكم ، والعتيق : عدا الجمعة الأولى فانه كان يصليها فى مصلى قصره .

وسبب هذا التنقل الرأفة بالناس حتى لا يتجشم سكان الأحياء النائية مشقة الانتقال ؛ فكان الخليفة يومئذ يذهب إلى المسجد — كما قال المقريزى — لابساً البياض توقيراً للصلاة من الذهب ، والمنديل والطيلسان المقور الشعرى ، فيدخل من باب الخطابة والوزير معه بعد أن يتقدمه فى أوائل النهار صاحب بيت المال (وزير المالية) وبين يديه الفرش المختصة بالخليفة إذا سار اليه فى هذا اليوم ، وهو محمول بأيدى الفراشين المميزين ، فيفرش فى المحراب ثلاث طراحات: إما سامان ، أو ديبقى أبيض كل منها منقوش بالحمرة، فتجعل الطراحات متطابقات، ويعلق ستران يمنة ويسرة ، وفى الستر الأيمن كتابة مرقومة بالحرير الأحمر واضحة منقوطة ، أولها البسملة والفاتحة وسورة الجمعة ، وفى الستر الأيسر مثل ذلك وسورة « إذا جاءك المنافقون »، قد علقا على حائط المحراب وأسبلا على جانبيه . ثم يصعد قاضى القضاة المنبر، وفى يده مدخنة لطيفة



(رسم رقم ٥ : منبر مسجد سليمان باشا «سارية الجبل»)

خزران فيهاجرات، ويجعل فيها ند مثلث لايشم مثله إلا هناك ؛ فيبخر الذروة التي عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ،ويكرر ذلك ثلاث دفعات .فيأتى الخليفه فى هيئة موقرة من الطبل والبوق ؛ وحوالى ركابه - خارج أصحاب الركاب-القراء،وهم قراء الحضرة من الجانبين، يطربون بالقراءة نوبة بعد نوبة،يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسى طول الطريق إلى قاعة الخطابة من الجامع فيجلس فيها والوزير فى مكان آخر.

فاذا أذن بالجمعة دخل إليه قاضى القضاة فقال له : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة! يرحمك الله » ؛ فيخرج ماشيا وحواليه الأساتذة المحنكون ، والوزير وراءه ، ومن يليهم من الخواص ،وبأيديهم الأسلحة من صبيان الخاص -وهم أمراء أطلق عليهم هذا الاسم - فيصعد المنبر إلى أن يصل إلى الذروة تحت تلك القبة المبخرة .

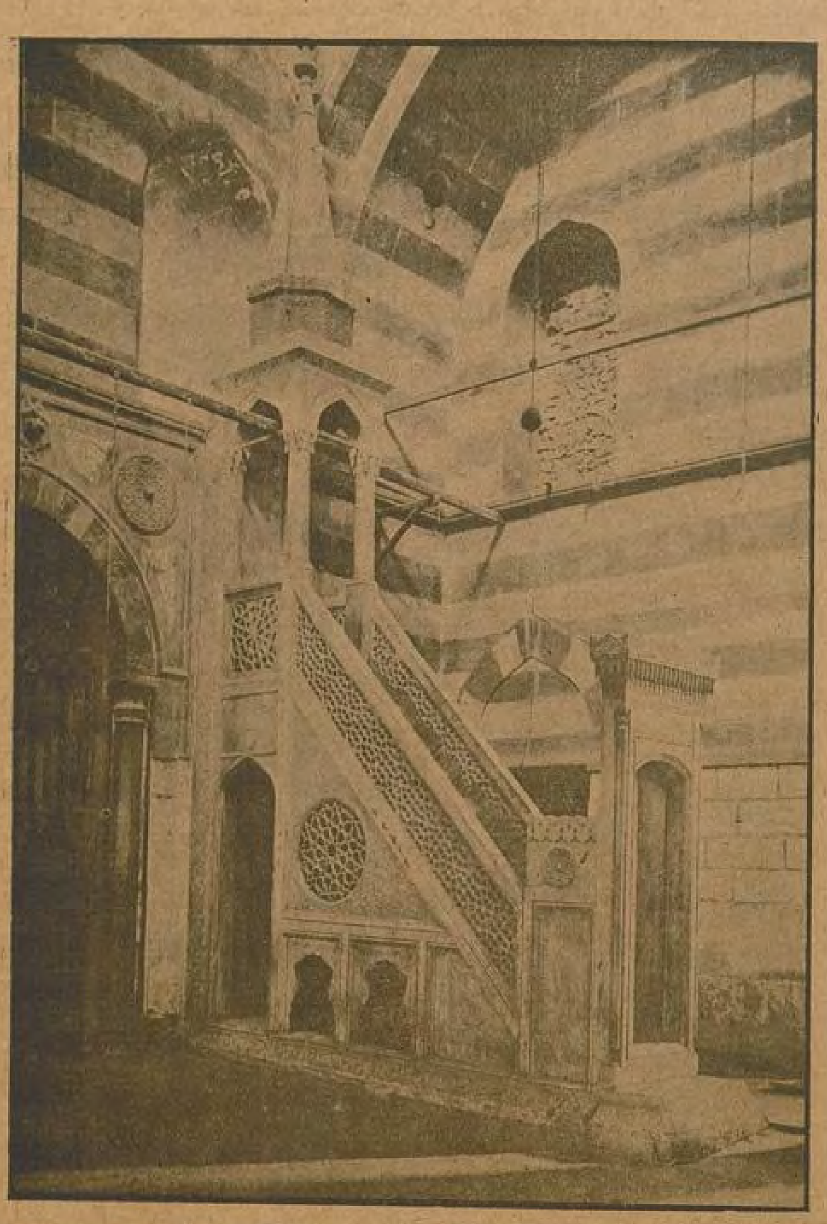
فاذا استوى جالساً والوزير أو قاضى القضاة على باب المنبر ووجهه إليه، فيشير إليه بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه ، فيقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزرر عليه تلك القبة لأنها كالهودج، ثم ينزل مستقبلا فيقف ضابطاً لباب المنبر .

فيخطب الخليفة خطبة قصيرة من مسطور يحضر إليه من ديوان الانشاء يقرأ فيه آية من القرآن الكريم مثل « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى » الآية ، ثم يصلى على أبيه وجده، يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ، وعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه،ويعظ الناس وعظاً بليغاً قليل اللفظ ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه فيقول: « اللهم! وأنا عبدك وابن عبدك، لاأملك لنفسى ضراً ولا نفعاً » ويتوسل بدعوات فخمة تليق بمثله ، ويدعو للوزير إن كان،وللجيوش بالنصر والتأليف، وللعساكر بالظفر،وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك والقهر ؛ ثم يختم بقوله: « اذكروا الله يذكركم» فيطلع إليه من زرر عليه، ويفك ذلك التزرير وينزل القهقرى: (وسبب التزرير عليهم قراءتهم من مسطور كما يفعل بعض الخطباء الآن) ؛ فينزل الخليفة ويصير على تلك الطراحات الثلاث فى المحراب وحده إماما ، ويقف الوزير وقاضى القضاة صفا ، ومن ورائهما الأساتذة المحنكون ، والامراء المطوقون ، وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والاقلام ، والمؤذنون وقوف وظهورهم إلى المقصورة لحفظه . فاذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضى، فأسمع القاضى المؤذنين ، وأسمع المؤذنون الناس.

هذا والجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه ، فيقرأ ماهو مكتوب فى الستر الأيمن فى الركعة الأولى ، وفى الركعة الثانية ماهو مكتوب فى الأيسر ، وذلك على طريق التذكار خيفة الارتاج.

فاذا فرغ خرج الناس وركبوا أولا فأولا ، وعاد طالبا القصر ، والوزير وراءه ، وضربت الأبواق والطبول فى العود . اه

قلت : والسبب فى قراءتهم هاتين السورتين هو اقتداء بما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم،



(رسم رقم ٦ : منبر مسجد الملكة صفية)

فقد كان يقرأ مرة « الجمعة » و « المنافقين » ومرة « سبح اسم ربك الأعلى » و « هل أتاك حديث الغاشية » فهما سنتان عنه عليه السلام .

وبعد أن انقضى عهد الفاطميين، وملك الأيوبيون مصر، ألغوا كل ماصنعه الفاطميون حتى أنهم أغلقوا الأزهر مائة عام ، واكتفوا بجامع الحاكم لاتساعه ، لأنهم كانوا شافعي المذهب الذى لايجيز إقامة جمعتين فى بلد واحد إلا للضرورة .

وهاك وصف الخطبة والدعاء ،وشكل المنبر فى عهدهم نقلا عن ابن جبير فى رحلته: «...ويأخذ الخطيب فيها ـ أى فى الخطبة ـ مأخذا سنيا يجمع فيه الدعاء للصحابة والتابعين ومن سواهم، ولأمهات المؤمنين، ولعمى الرسول الكريمين : حمزة والعباس ، ويلطف الوعظ ، ويرقق التذكير حتى تخشع القلوب القاسية وتنفجر العيون الجامدة ؛ ويأتى للخطبة لابسا السواد على رسم العباسيين، وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود ، وهو الذى يسمى بالمغرب « الاحرام » وعمامة سوداء متقلداً سيفا ؛ وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين ، كأنها إيذان بالانصات ، وفى توسطه أخرى ، وفى انتهاء صعوده ثالثة، ثم يسلم على الحاضرين يمينا وشمالا ، ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض قد ركزتا على المنبر ... » اه .

واتخذ العباسيون السواد شعارا لهم كما اتخذ الأمويون البياض قبلهم، وقد استعمل الانسان الألوان لترمز لحالة معينة ؛ فرمز مثلا: باللون الأحمر للحرب ، واللون الأخضر للسلم ،واللون الأبيض للسرور ، واللون الأسود للحرب .

وقد كان أهل الأندلس يستعملون البياض حدادا كما أشار إلى ذلك الشاعر بقوله .

يقولون: البياض لباس حزن   بأندلس ، فقلت: من الصواب

ألم ترنى لبست بياض شيبى   لأنى قد حزنت على الشباب؟

واختلف فى سبب اختيار العباسيين السواد فقال الماوردى فى كتابه « الحاوى »: إن النبى صلى الله عليه وسلم فى يوم حنين ويوم الفتح عقد لعمه العباس رضى الله عنه راية سوداء .

وذكر أبو هلال العسكرى فى كتابه « الأوائل »: لما أراد مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين قتل ابراهيم بن محمد العباسى أول القائمين بطلب الخلافة من بنى العباس، قال ابرهيم لشيعته : لا يهولنكم قتلى فاذا تمكنتم من أمركم فاستخلفوا عليكم أبا العباس، يعنى السفاح ؛ فلما قتله مروان لبس شيعته عليه السواد ، فلزمهم ذلك وصار شعاراً لهم .اه .

قلت: وأول من خطب بلباس السواد بمصر، الأمير عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية سنة ١٥٢هـ (٧٦٩ م)

يوسف أحمد

على باشـــــــا مبارك

١٨٢٤ — ١٨٩٣

زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر اسماعيل

بقلم الاستاذ الجليل : عبد الرحمن بك الرافعى

تنـاول الاستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعى بك ، في العدد الماضى (مارس سنة ١٩٣٢) بالبحث والتحليل : نشأة على باشا مبارك الاولى ، ونشأته الثانية فى المدارس النظامية، فدخوله مدرسة ميت العز، فانتقاله الي مدرسة قصر العيني، ثم انتقاله الى مدرسة أبى زعبل ، وكان الاستـاذ الرافعى بين ذلك كله يحلل العصر الذى عاش فيه على مبارك من الناحيـة العلمية والتاريخية بما عرف عنه من الصدق فى الرواية ، و الدقة في الاسلوب، والبراعة فى الاستنتاج.

وفى هذا العدد يتناول النواحى الاخري من حياة على باشا مبارك التي يراها القراء بعد ؟

المحرر

دخوله مدرسة المهندسخانة

دخل المترجم مدرسة المهندسخانة ، وكان إذ ذاك يافعاً إذ بلغ السادسة عشرة من عمره ، فأخذ نضوجه العلمى يزداد وينمو ، ومكث خمس سنوات يتابع الدرس حتى استكمل جميع علوم المدرسة ، وظهرت عليه مخايل الذكاء والتقدم منـذ دخلها ، فـكان دائماً أول فرقته ؛ وكان أساتذته فيها طائفة من علماء الرياضيات ممن علا ذكرهم فى فجر النهضة العلمية ، أمثال: محمود باشا الفلـكى ، وطائل افندى ، ومحمد بك أبو سن ، ودقلة افندى ، وابرهيم بك رمضان ، واحمد بك فايد ، وسـلامه باشا ، وناظر المدرسة المسيو لامبير بك أحد علماء الفرنسيس ؛ ولهؤلاء الأساتذة فضـل كبير على المترجم ، إذ تلقى على أيديهم العلوم الهندسية والرياضية ؛ ولم تـكن ثمة كتب مؤلفة فى الفنون التى تولوا تدريسها ، بل كان المعلمون يملون والتـلاميذ يكتبون ما يسمعونه فى كراريس ، كل على قدر اجتهاده ، وكان المعلمون - كما شهد لهم بذلك المترجم - « يبذلون غاية جهدهم فى التعليم » ؛ وفى آخر عهده بمدرسة المهندسخانة أخذوا يطبعون بعض الـكتب فى مطبعة الحجر ، فاستعان بها التلاميذ إلى أن تـكاثر طبع الـكتب المطولة فى العلوم والفنون الرياضية .

انتظامه فى سلك البعثات سنة ١٨٤٤

تعددت البعثات العلمية إلى أوربا فى عهد محمد على باشا ، وقد تكلمنا عنها تفصيلا فى الجز
الثالث من تاريخ الحركة القومية (ص ٤٥١ وما بعدها)

وتخرج من البعثات طائفة من النوابغ فى عصر محمد على ، واسماعيل؛ ومن حسن توفيق المترج
وحسن استعداده أن انتظم فى سلك البعثة الخامسة ، وهى أكبر البعثات شأناً، وفيها بعض
أنجال محمد على وأحفاده ، ولذلك يسميها على باشا مبارك (بعثة الأنجال)

تولى القائد سليمان باشا الفرنساوى اختيار أعضاء هذه البعثة من نوابغ طلبة المدارس العالية
فكان التلميذ على مبارك ضمن من اختيروا لها من متقدمى مدرسة المهندسخانة ، وبلغ عدده
فى مبدئها سبعين تلميذاً ، منهم : الأمير عبد الحليم ، والأمير حسين من أنجال محمد على ، والأمير أحمد
رفعت ، والأمير اسماعيل (الخديوى) من أنجال إبرهيم باشا ، وضمت طائفة ممن شغلوا المراكز
الكبيرة فى الحكومة بعد عودتهم ، أمثال : شريف باشا ، وعلى باشا مبارك ، وعلى ابرهيم
باشا ، وحماد عبد العاطى باشا ، وسليمان نجاتى بك وغيرهم (١)

وقد بدا من المترجم لمناسبة التحاقه بهذه البعثة ، ما فطر عليه من الميل الشديد إلى العلم
فإن المسيو لامبير بك ناظر المهندسخانة رغب إليه البقاء ليجعله مدرساً ، وأفهمه أن بقاءه
يعجل بترتيب وظيفة له ، على حين أن التحاقه بالبعثة يجعله فى سلك التلاميذ ، ويفوت عليه
تلك المزية ؛ لكنه آثر الالتحاق بالبعثة ليزداد اكتساباً للعلوم « ولأن سفره مع الأنجال
مما يزيده شرفاً ورفعة »

سافرت البعثة إلى فرنسا سنة ١٨٤٤ ، ووجهتها تعلم الفنون الحربية ، وأقام أعضاؤها
سنتين بباريس ، ولأجلهم أنشئت المدرسة المصرية لتعليم الطلبة اللغة الفرنسية ،
وإعدادهم لدخول المدارس العليا ، وخصص لهم بها المعلمون والضباط الفرنسيون ، وكان
تلاميذ البعثة يتعلمون التعليمات العسكرية كل يوم ، ولقى المترجم فى دراسة اللغة الفرنسية مصاعب
جمة ، ذللها بقوة العزيمة ، فقد كان إلى عهد انتظامه فى البعثة غير عارف بتلك اللغة ، شأنه فى
ذلك كشأن العلامة رفاعة رافع الطهطاوى حينما انتظم فى البعثة الأولى ؛ واقتضى نظام التعليم
فى البعثة أن يجعل من المتقدمين فى الرياضات (ومنهم المترجم) والعارفين باللغة الفرنسية فرقة
واحدة ، وكلف المعلمون أن يلقوا الدروس بالفرنسية للجميع ، لافرق بين من يفهم تلك اللغة
ومن لا يفهمها ، ففعلوا ، وأحالوا غير العارفين بها على العارفين ليتعلموا منهم بعد انتهاء الدروس؛
ولكن العارفين بالفرنسية كانوا يبخلون على مثل على مبارك بالتعليم لينفردوا بالتقدم .

(١) ذكرنا أسماءهم ، وترجمنا لنوابغهم فى الجزء الثالث من (تاريخ الحركة القومية) ص ٤٦٥ وما بعدها .

فمكث المترجم مدة لايفهم الدروس التى يسمعها ، وخشى العاقبة ، فعالج هذه الصعوبة بالصبر والمثابرة وقوة العزيمة ، ذلك أنه أخذ يدرس الفرنسية بنفسه ، واشترى لهذا الغرض الكتب الأولية فى الهجاء واللغة ، وأكب على مطالعتها وتفهمها وحفظها ، وبذل فى هذا السبيل جهداً لاينقطع ثلاثة أشهر متوالية مع متابعة الدروس التى تلقى بالفرنسية ، فأثمر الحفظ والجهد ثمرة كبيرة ، وصار أول البعثة كلها ، وكان يتبادل الأولية مع زميليه : على (باشا) ابرهيم ، وحماد (باشا) عبد العاطى .

ولماجاء ابرهيم باشا قائد الجيوش المصرية المظفرة إلى باريس ، أقيم له احتفال حافل ، وحضر امتحان أعضاء البعثة ، فسمع ثناء مستطاباً على حسن اجتهادهم ، ووزع بنفسه الجوائز على الناجحين منهم ، وناول على مبارك الجائزة الثانية بيده ، وكانت نسخة من كتاب فى الجغرافية لمؤلفه المسيو (مالطبرون) مع مجموعة خرائطه ، ودعا الطلبة إلى تناول الطعام على مائدته ، فكان ذلك تكريماً لهم وتشجيعاً وحثاً لهم على متابعة الدرس والتحصيل .

يتجلى لك فى هذه الصفحة من حياة المترجم بباريس مبلغ قوة إرادته ، ومثابرته على الدرس والتعلم ؛ وثمة ظاهرة أخرى تزين هذه الصفحة ، وهى بره بوالديه ، وحنوه عليهما ، فقد أجرت عليه الحكومة راتباً شهرياً قيمته مائتان وخمسون قرشاً ، فجعل نصفها لأهله يصرف لهم من مصر كل شهر ، ويكتفى هو بالنصف الآخر ، وكانت هذه سنته معهم منذ دخل المدارس .

وهذا البر بالأبوين يدلك على ما تجملت به نفس على مبارك من الوفاء ومكارم الأخلاق ، وإنكار الذات ؛ ولا شك أن هذه المزايا مما يزين شخصية المترجم ويزيدها سطوعاً وبهاء .

التحاقه بمدرسة متز الحربية

ولما انقضى عامان على إقامة البعثة بباريس ألحق الثلاثة الأوائل من أعضائها وهم : على مبارك ، وحماد عبد العاطى ، وعلى إبرهيم ، بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيرة بمتز ، ونالوا رتبة الملازم الثانى فى الجيش الفرنسى ، فأقاموا سنتين أخريين يتعلمون الفنون الحربية .

وبعد أن أدوا الامتحان النهائى ألحقوا بالجيش الفرنسى ، فكان على مبارك فى الآلاى الثالث من فرقة المهندسين الحربية ، وقضى به أقل من سنة ؛ وبديهى أنه اكتسب بانتظامه فى هذه الفرقة خبرة حربية كبيرة ، فى الفنون الحربية والهندسية ، فزادت معارفه التى نالها فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ومدرسة باريس ومدرسة متز الحربية ، فلا غرو أن صار من نوابغ المهندسين المصريين ، وظهر نبوغه فى إدارته لمصلحة السكك الحديدية ، وولايته وزارة الأشغال المصرية فى عصر اسماعيل .

وكان ابرهيم باشا يرغب فى أن يزداد أعضاء البعثة خبرة وعلماً ، وأن يطيلوا مكثهم فى الخدمة العسكرية بفرنسا حتى يستوفوا تجاريبها ، ثم يتنقلون فى الديار الأوربية الأخرى ليطبقوا العلم على العمل ، ويشاهدوا مافيها من المنشآت الهندسية والحربية ، ولكن وفاته حالت دون إنفاذ

هذا البرنامج ؛ فلما خلفه عباس الأول طلب إلى نوابغ البعثة العودة فوراً إلى مصر ،فرجعوا
إليها سنة ١٨٥٠،وانتقل المترجم بذلك من حياة التحصيل والدراسة إلى دور العمل والانتاج

عمل المترجم فى عهد عباس

عاد المترجم كامل النضوج ، واسع الاطلاع ، صادق العزم ، مقبلا على العمل بكل مافيه
من نشاط وهمة ؛ ولو وجد من ولاة الأمور من يستثمر مواهبه وكفاءته فى النهوض بأعمال
التقدم والعمران، لظهرت نتائج هذه المواهب حين عودته إلى مصر ؛ لكنه لم يجد من يقدر
قيمته، ويستثمر كفاءته، فانقضى نحو أربعةعشر عاماً، والبلاد تكاد تحرم أعماله المنتجة، وخاصة
فى عهد سعيد الذى لم يكن يقدره حق قدره .

ولم يبدأ عهد إنتاجه الكبير إلا فى عصر اسماعيل الذى عرف كيف يوجه هذه القوة إلى
إحياء النهضة العلمية فى البلاد .

تعيينه مدرساً بمدرسة طره الحربية

كان أول مركز شغله على مبارك بعد عودته لمصر،أن عين مدرساً بمدرسة طره الحربية ؛
ولكن التعليم فى عهد عباس باشا الأول كان مصاباً بالجمود والاهمال ، فتناقص عدد التلاميذ
فى هذه المدرسة، وخاصة حينما أنشأ عباس مدرسة (المفروزة) التى اختار لها الطلبة من جميع
المدارس بعد إلغاء معظمها ، ولم يبق بمدرسة طره إلا عدد قليل من الطلبة المتقدمين فى السن،
وأمعنت المدرسة فى التأخر حتى لم يبق فى الفرقة التى يلقى فيها على مبارك دروسه سوى تلميذ واحد.

صار المترجم إذن بلا عمل ، وليس هذا مما تميل إليه نفسه ، لأنه اعتاد الكد والدأب
على العمل ؛ ولقد حدثته نفسه أن يتخلف عن المدرسة فى أجازة لبزور أهله بعد غيبته الطويلة
عنه ، فرغب إليه ناظر المدرسة فى البقاء حتى لا يقطع نصف راتبه إذا هو غاب عنها .

وسعى له الناظر عند سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى ، ليصطحبه
فى مهمة حربية،هى اكتشاف بحيرة المنزلة وسواحل مصر الشمالية،فتم له ما أراد ، وصحب المترجم
سليمان باشا إلى دمياط ، وأدى ما كان مطلوباً منه ، وهو ارتياد بحيرة المنزلة ، وخطط رسماً
مفصلا لمواقعها ، وكتب تقريراً عنها ، ثم ذهب إلى بلدته برنبال ، وكان أهله قد رجعوا إليها
منذ مدة واستقروا بها.

زيارته لأهله

فدخل البلدة على حين غفلة من أهلها ، وذهب من فوره إلى منزل أبويه ، وطرق الباب ،
وكان أبوه غائباً بمصر ؛ ولم يكن بالمنزل سوى والدته وبعض إخوته ؛ وكان قد فارق أمه منذ
أربع عشرة سنة، ولم تكن تتوقع حضوره فى تلك الليلة ، فلما طرق الباب قيل: مَن أنت؟فقال:
ابنكم على مبارك ، فقامت مدهوشة وقصدت إلى ماوراء الباب ، وجعلت تنظر وتمعن النظر

لتحقق الخبر ، وكان بردائه العسكرى متقلداً سيفه وحاملا شوار الضباط، فلم تصدق أنه ابنها حتى أعادت سؤاله، وتحققت أنه هو، ففتحت الباب ، وما ان رأته حتى ارتمت عليه تعانقه، ووقعت مغشيا عليها من الدهشة والفرح والتأثر، ثم أفاقت، وجعلت تبكى، وتضحك، وتزغرد، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران يهرعون، وامتلأت بهم الدار، وانقضى الليل حتى الصباح، والناس بين رائح وغاد، يجيئون لتهنئته؛ وأقامت أمه الأفراح ابتهاجاً بعودة ابنها العزيز، وبلوغه هذه المرتبة العالية.

وبعد يومين قضاهما بين أهله وعشيرته عاد إلى دمياط، وعرض على القائد سليمان باشا الفرنساوى ، نتيجة تجواله فى بحيرة المنزلة ، فوقعت عنده موقع الاستحسان، وأثنى عليه الثناء المستطاب .

التحاقه بمعية عباس باشا

وفى أثناء صحبته سليمان باشا الفرنساوى، سعى له فى منصب آخر بدلا من التدريس فى مدرسة طره ، فنجح فى إلحاقه بمعية جاليس بك قومندان الاستحكامات ، وكان مقره الاسكندرية .

فذهب إليها المترجم ليستلم منصبه الجديد ؛ ولكن عباس باشا قرر أن يلحقه بمعيته هو ، وحماد بك، وعلى بك ابرهيم ، وكلفهم امتحان مهندسى الأقاليم ومعلمى المدارس ، وأنعم على كل منهم برتبة الصاغ ، فأدى المترجم هذه المهمة واستبدل بالمهندسين القدماء مهندسين أكفاء من خريجى مدرسة المهندسخانة ؛ وأتم فى خلال ذلك مهمات أخرى هندسية ، فأحيل عليه الكشف على شلال أسوان لدرس مشروع تسهيل الملاحة فيه ، فقدم تقريراً وافياً لهذا المشروع .

ولما عاد إلى القاهرة عهد إليه عباس بالاشتراك مع المسيو موجيل بك كبير مهندسى القناطر الخيرية ، وضع نظام لمرور السفن من القناطر التى كان بناؤها قد قارب التمام ، فأدى هذه المهمة، وأحيلت عليه وعلى زميليه على ابرهيم وحماد عبد العاطى كل الأعمال الهندسية التى تطلبها دواوين الحكومة .

مشروع تنظيم المدارس

وشرع عباس فى وضع نظام جديد للمدارس بعد أن ألغى معظمها ؛ ففى أواخر سنة ١٨٥١ عرض عليه المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة ميزانية للمدارس الملكية والرصدخانة تبلغ ٢٠٠٠٠ كيس (١٠٠٠٠٠ جنيه)، فاستكثر عباس هذا المبلغ ، وأحال المشروع على المترجم، فوضع للمدارس الملكية ميزانية تبلغ خمسة آلاف جنيه ، على أن تكون فى مكان واحد، وبادارة ناظر واحد؛ واستبعد الرصدخانة من المشروع لعدم وجود من يقوم عليها حق القيام ولكثرة نفقاتها .

نظارته لمدرسة المهندسخانة

ولما عرض المشروع على عباس حاز إعجابه، وأحاله على مجلس مؤلف من رؤساء الدواوين، فبحثوه وأقروه، وأنعم على المترجم لهذه المناسبة برتبة أميرالاى، وعهد إليه بتنفيذه، وجعله ناظراً لمدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من المدارس الملكية، وكلفه اختيار مدرسى مدرسة المفروزه، ووضع نظام للتعليم فيها، واختيار مايلزم لها من الكتب، فاضطلع بهذه المهمة، وعظمت منزلته عند عباس باشا.

وبذل جهداً عظيما فى ترقية شأن المدارس التى تولى إدارتها، فكان يرشد المعلمين إلى خير الطرق للتدريس، ويتفقد فصول الدراسة وأحوالها، ويباشر تأليف الكتب المدرسية بنفسه، يعاونه بعض المعلمين، وأنشأ مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها للمدارس الحربية وآلايات الجيش نحو ستين ألف نسخة من كتب متنوعة، غير ما طبع فى كل فن بمطبعة الحجر للمهندسخانة من الكتب ذات الأطالس والرسوم، وكان فوق ذلك يلقى بعض الدروس كالطبيعة والعمارة، ويعنى شديد العناية بتوفير حاجات الطلبة فى مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، ويسهر على حسن معاملتهم، فارتقت حالتهم الفكرية والمعنوية، وكاد يمتنع الضرب والسجن من المدارس.

عمله فى عهد سعيد باشا

اشتراكه فى حرب القرم

يؤخذ مما كتبه المترجم عن نفسه أنه لم يكن مرضيا عنه من سعيد باشا، فقد ذكر أنه لما تولى الحكم وشى له بعض الكاشحين بمدرسة المهندسخانة، ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة، واختلقوا عليها معايب كثيرة، حتى أوغروا صدر سعيد على المترجم، فأمره بالاشتراك فى حرب القرم سنة ١٨٥٤ صحبة الحملة المصرية التى كان يقودها احمد باشا المنكلى.

وليس من ضير على الحكومة اذا عهدت الى مثل على بك مبارك أن يشترك فى حرب القرم، فقد نال حظا كبيرا من التعليم الحربى، وتخرج فى أرقى المدارس الحربية الفرنسية، ولكن ملابسات هذا العمل تدل على أن الغرض منه لم تكن الاستفادة من خبرة المترجم الحربية، إذ لم يعهد إليه فى حرب القرم بعمل حربى ذى شأن، تحرم من أجله مدرسة المهندسخانة كفاءة ناظرها القدير، ومن جهة أخرى فقد اقترن تكليفه مرافقة الحملة بالغاء مدرسة المهندسخانة، فالغرض الحقيقى كان إذن إبعاد المترجم وإقفال هذا المعهد العلمى العظيم الذى أخذ على عاتقه ترقيته وإنهاضه، فالعمل كما ترى ضرره اكثر من نفعه، وشره أكثر من خيره ؛ لكن أهواء سعيد باشا (وقد كان دائما كثير التقلب فى الآراء) جعلته يصغى لوشاية الدساسين، ويوصد أبواب تلك المدرسة، ثم يحرم البلاد خدمات على بك مبارك العلمية، ذلك أن على مبارك، وإن كانت

دراسته العليا عسكرية، لكن نفسه اتجهت إلى ناحية أخرى غير الحياة الحربية، هى ناحية التعليم وتنظيمه والنهوض بأعبائه .

فكان واجباً على سعيد باشا أن يستخدم مواهب المترجم فى هذا الميدان ، وأن يعمل على الأقل للمحافظة على نهضة العلم والتعليم التى ازدهرت فى عهد أبيه ؛ ولكن المعروف أن هذه النهضة قد اضمحلت وتراجعت فى عهد عباس وسعيد ، ولم يعاودها النشاط والحياة إلا فى عصر اسماعيل .

ويستفاد مما ذكره المترجم،أنه شعر بأن تكليفه مهمة السفر إلى بلاد القرم كان مقصوداً به إبعاده والنكاية به ، وهذا مفهوم من قوله: «أقمت بهذه السفرة قريبا من سنتين ونصفاً ،وقد لطف الله بى وأحسن إلى، ورد كيد الحاسدين فى نحورهم، فانى وإن قاسيت فيها مشاق الأسفار، وما يلحق المجاهدين من الارجاف والاضطرابات ، والحرمان من المألوفات ؛ لكنى رأيت بلاداً وعوائد كنت أجهلها ، وعرفت أناساً كنت لا أعرفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية » فيؤخذ من ذلك أن ثمة حاسدين كانوا يكيدون له؛ ومن مكايدهم أنهم دبروا أمر إبعاده إلى بلاد القرم وإرساله إلى ميادين الحروب المحفوفة بالمكاره والاخطار ، ولكن الله لطف به إذ رد كيدهم، وعاد من الحرب سالماً، ونال منها مزايا جمة.

والواقع أنه أفاد كثيراً من هذه الحملة؛ فان الاشتراك فى الحروب من شأنه أن يقوى فى النفس روح الشجاعة والاقدام ، ولو اشترك المترجم فى اقتحام المخاطر والبقاء فى خط النار لكان أثر هذه الحملة فى نفسه أقوى وأعظم ، ولزاد حظه من الشجاعة والجرأة ، ولوقف من الحكومات المتعاقبة التى تولت الحكم فى مصر مواقف أعظم شأنا من خطة اللين والمسالمة التى اختطها لنفسه ؛ ومهما يكن من الأمر ،فلا نزاع فى أن مداركه قد اتسعت، وخبرته قد اكتملت فى تلك الحرب .

أقام المترجم عشرة أشهر فى بلاد القرم ، وكان يعهد إليه أمر المفاوضات والمخابرات بين الروس والترك،وأقام ثمانية أشهر أخرى فى بلاد الاناضول أغلبها فى مدينة (كومشخانه)، وكان منوطا به تسهيل نقل الجند من مدينة طرابزون الواقعة على البحر الأسود إلى مدينة أرضروم بأرمينيا؛ وعلى كون هذه المهمة ليست من ضروب القتال الفعلية، فقد لاقى فيها الشدائد والاهوال،لشدة البرد، وكثرة الثلج فى تلك الجهات ، ووعورة طرقها ، وصعوبة اجتياز مافيها من العقبات بين جبال شاهقة وأودية سحيقة.

وقد مرض كثير من الجند لما أصابهم من البرد القارس، وأنشأ لهم المترجم مستشفى بكومشخانه، نظمه تنظيما حسناً، ونال ثناء أعيان المدينة وأكابرها ورؤساء الجند .

عودته الى مصر والوظائف التى تولاها

ولما عاد المترجم إلى مصر اعترضته فى الحياة عقبات ومتاعب جمة ، ذلك أن سعيدباشاأمر باخلاء سبيل الجنود وإرجاعهم إلى بلادهم ، ورفت كثيراً من ضباط الحملة ، ومنهم على بك مبارك.

فسكن فى بيت صغير ، وعانى غضاضة العسر والضيق ، وصارت حالته بعد سبع سنوات من عودته من فرنسا كحالته عند ما عاد منها ، وفقد ما كان يناله ويؤمل فيه من المناصب والوظائف، وفقد ماله ، وشعر بمرارة اليأس تنغص عليه حياته ، وداخله الهم والكدر ، وحدثته نفسه أن يرغب عن خدمة الحكومة والتطلع لمناصبها ، إذلم يجد من ولاة الأمور إنصافا ولاتقديراً ، واعتزم الرجوع الى بلده ، والاشتغال بالزراعة ، وقال لنفسه، «عوضنا الله خيرا فى نتائج الفكر، وثمرات المعارف، ولنفرض أننا مافارقنا البلد ولا خرجنا منها » .

وبينما كان يتأهب للرجوع الى بلده صدر الأمر للضباط المرفوتين بالحضور الى القلعة ، فكان هو ممن أعيدوا للخدمة ، فعدل عن عزمه الأول .

وبعد قليل عين معاونا بوزارة الحربية ، وأحيل عليه النظر فى التحقيقات الخاصة بالمصانع الحربية والجبخانات ، ولم يكن هذا العمل مما تألفه نفسه ، لتفاهته وعقمه ، ولكنه راض نفسه على الصبر، عسى الله أن يأتى بالفرج القريب ؛ وحدث أثناء قيامه بهذه الوظيفة أن شرع وزير الحربية (اسماعيل باشا الفريق) فى وضع رسم لبعض المناورات الحربية ، فعجز عن عمله ، وحار فى إتمامه ، واستدعى على بك مبارك ، لما كان يعهد فيه من الكفاءة والخبرة، فوضع الرسم المطلوب ، فأثنى عليه الفريق ووعده بأن يذكره بالخير عند سعيد باشا .

وقد وفى اسماعيل باشا بما وعد ، وكان من نتيجة مسعاه أن أمر سعيد باشا بالحاق المترجم بمستودعى الداخلية ، وكان يحال عليه النظر فى بعض القضايا، ثم عهدت اليه وكالة المحكمة التجارية، فاضطلع بأعبائها، بأمانة ونزاهة ؛ولكن سلفه فيها وشى به لدى سعيد باشا فرفت منها، فعاد كما بدا ، عاطلا من المنصب ؛ واعتكف فى بيته ثلاثة أشهر ، ثم عين مفتشا لهندسة نصف الوجه القبلى ، ثم استدعاه سعيد باشا، وعهد اليه بوضع مشروع استحكامات أبى حماد ، وهو مشروع جليل الشأن ، كان الغرض منه تحصين موقع أبى حماد (جنوبى رشيد) بين ذرع رشيد وبحيرة أدكو ، لمنع العدو من مهاجمة القطر المصرى من هذه الناحية ، فوضع المترجم الرسم المطلوب لهذه الاستحكامات ، وأدى المهمة على خير ما يرام ؛ ولكنه عند ما أراد أن يعرض الرسم على سعيد باشا لم يستطع تقديمه اليه ، وتردد عليه آنا فى طره ، وآونة فى قصر النيل ، فلم تتيسر له مقابلته ، واضطر لملازمة معيته فى السفر من بلد الى بلد مدة ثلاثة أشهر،بلا راتب، ولا عمل ، دون أن يظفر بتقديم الرسم المطلوب ، الى أن رآه سعيد يوما فى الجيزة، فذكر الرسم الذى كلفه به ، وسأله عنه ، فقدمه اليه ، فنظر فيه قليلا ولم يزد عن قوله له :

«أبقه حتى نجد وقتا لامعان النظر فيه » ، وكانت هذه الاجابة نتيجة الانتظار ثلاثة أشهر ، ثم لم يلتفت إليه بعد ذلك؛ ولكنه أمر أن يربط مرتب للمترجم ، وبقى فى معيته زمنا بلا عمل ، الى أن أصدر أمره باختيار بعض المعلمين لتعليم الضباط وصف الضباط الخارجين من تحت السلاح القراءة والكتابة والحساب، فتقدم على بك مبارك للقيام بهذه المهمة لكى يشغل نفسه بعمل ما، مهما كان ضئيلا، لأن نفسه تعاف الكسل والبطالة، فصار يدرس حروف الهجاء، والخط، والمبادىء الأولية فى الرياضيات، والقواعد الحسابية، وعاونه فى التدريس اثنان من المدرسين، ووضع فى ذلك كتابا مختصرا فى الحساب والهندسة وطرق الاكتشافات العسكرية، سماه (تقريب الهندسة).

وكان يشغل أوقات فراغه بالمطالعة وتدوين بعض الملاحظات على مايقرأه؛ جمعها بعد ذلك فى كتاب سماه (تذكرة المهندسين) يحتوى على فنون شتى يحتاج إليها المشتغلون بالهندسة .

ولما اعتزم سعيد باشا السفر لأوربا أمر برفت معظم من كان بمعيته ، فكان المترجم ضمن المرفوتين .

وأمر قبل ذلك ببيع مهمات مدرسة المهندسخانة وأدواتها وكتبها ضمن كثير من تعلقات الحكومة التى اعتبرت « زائدة عن الحاجة » ، فدهش المترجم إذ رأى هذه النفائس تباع بالمزاد بأبخس الأثمان ، وفى جملتها الكتب التى طبعها أثناء نظارته لهذه المدرسة ؛ ودخل فى المزاد ، واشترى من هذه الاشياء ما أمكنه ابتياعه.

ولما اشتد الضيق بالمترجم فكر فى الاشتغال بالتجارة ، فتاجر فيما اشتراه وعامل التجار وكثر منه البيع والشراء ، فربح واستعان بالربح على الاتفاق وأداء بعض الحقوق ، واستمر يتاجر مدة شهرين، ثم فكر فى التفرغ للتجارة والاعراض عن مناصب الحكومة ؛ لما رآه من اضطراب الاحوال وتقلبات الامور مما كاد يفقده ثمرات العلوم ؛ وشعر بأنه كلما تقدم به العمر وكثر بنوه نفد ما جمعه من الكد والتعب، فآثر الاحتراف بالتجارة، وجال بخاطره أن يعقد وبعض زملائه المهندسين المتقاعدين شركة ، يجعل الغرض منها بناء البيوت للبيع والتجارة ، فيربحون منها ويستثمرون فيها معارفهم الهندسية وخبرتهم الفنية ، فلم يجد من يوافقه على مشروعه، ففكر فى القيام به بنفسه، وبينما كان يفكر فى مخرج من الضيق الذى اشتد به؛ طرق سعيد باشا طارق المنون سنة ١٨٦٣ ، فكان لوفاته أثر كبير فى حياة المترجم، ذلك أن اسماعيل لم يكد يعتلى العرش حتى فكر فى استخدام مواهب زميله القديم فى البعثة، فانفتح باب الأمل والتوفيق أمام على بك مبارك؟

(يتبع) عبد الرحمن الرافعى



البر بعد أوانه

الزهرة والسحاب

وهى إحدى درر الشاعر العصرى الكبير

الاستاذ محمد الهراوى

مرت بواد مزنة ... فى يوم قيظ محرق
فاستوقفتها زهرة ... ترنو بعين الحدق
قالت لها : هل قطرة ... من مائك العذب النقى
أروى بها عودى وأنـ ... ـجو من هلاك محدق
وأعيد بعض نضارة ... ولت وأحفظ ما بقى
فالحر طاح ببهجتى ... ومضى بغصنى المورق
فاذا مننت بها علـ ... ـى ذكوت بين الزنبق
واخضر عود يابس ... ونما بزهر مونق
يامن تسير على جنا ... ح الريح نحو المشرق
روحى لديك فهاتها ... لى من نداك المغدق

***

فرنت لها أم الحيا ... بالناظر المترقرق
قالت لها : لبتك تلبيـ ... ـة الكريم المشفق
إنى سأرجع فاصبرى ... حتى أعود فنلتقى
راحت وعادت للتى ... ماتت ولم تك تستقى
صبت عليها من ندا ... ها الهاطل المتدفق
هيهات لايحيى الندا ... أهل القبور ولا يقى

***

البر خير ما عجلـ ... ـت به لعان مرهق
فاذا ونيت فانت فى ال ... إحسان غير موفق

محمد الهراوى

٥- الشاعر الذى قتل وحرقت جثته

لسان الدين بن الخطيب

بقلم الاستاذ الجليل : الشيخ أحمد الاسكندرى

أستاذ الأدب العربى بدار العلوم

ختام البحث

ومن محاسن لسان الدين بن الخطيب فى حسن التوجيه وهو أكثر بضاعته وأهم مميزات شعره وقد لمح فيه باصطلاحات أكثر العلوم والتاريخ والبلدان والأماكن والسياسة والقضاء قوله من نبوية :

أأجحد حق الحب والدمع شاهد　　وقد وقع التسجيل من بعد ما أدى

تناثر فى اثر الحمول فريده　　فلله عينا من رأى الجوهر الفردا

جرى يققا فى ملعب الخد أشهبا　　وأجهده ركض الأسى فجرى وردا

وقوله وقد وجه باصطلاحات صناعة الكيمياء الذهبية والنحو والطب :

لو سار عدلك فى السنين لما اشتكت　　بخسا ولم يك بعضهن كبيسا

ولو الجوارى الخنس انتسبت إلى　　أقدام عزك ماخنسن خنوسا

ومنها :

وأعنت أندلسا بكل سبيكة　　موسومة لاتعرف التدنيسا

وملأت أيديها وقد كادت على　　حكم القضاء تشافه التفليسا

وقد أحكم التورية فى حكم القضاء :

صدقت للآمال صنعة جابر　　وكفيتها التشميع والتشميسا

والحل والتقطير والتصعيد والتـ　　ـخمير والتصويل والتكليسا

فسبكت من آمالها مالا ومن　　أوراقها ورقا فكن طروسا

بهتوا فلما استخبروا لم ينكروا　　وزنا ولا لونا ولا ملموسا

وتدير من قلب السطور سبائكا　　منها ومن طبع الحروف فلوسا

ونحوت نحو الفضل تعضد منه بالمسموع ما ألفيت منه مقيسا
وجبرت بعد الكسر قومك جاهدا تغنى العديم وتطلق المحبوسا
ونشرت راية عزهم من بعد ما دال الزمان فسامها تنكيسا
أحكمت حيلة برئهم بلطافة قد أعجزت فى الطب جالينوسا
لم ترج إلا الله جل جلاله فى شدة تكفى وجرح يوسى

وقوله وفيه توجيه بأسماء الكتب :

ولما رأت عزمى حثيثا على السرى وقد رابها صبرى على موقف البين
أتت بصحاح الجوهرى دموعها فقابلت من دمعى بمختصر العين

ومن النوع الثانى وهو استخراجه للكثير من المعانى المخترعة أو الدقيقة التصور قوله :

أصبح الخد منك جنة عدن مجتلى أعين وسم أنوف
ظللته من الجفون سيوف جنة الخلد تحت ظل السيوف

وقوله فى آخر قصيدة يصف نفسه فيها بالاجادة ويعتذر عن تأخر زمانه :

ما ضرنى أن لم أجىء متقدما السبق يعرف آخر المضمار
ولئن غدا ربع البلاغة بلقعاً فلرب كنز فى أساس جدار

وقوله فى ساق :

كيف آمنتما على الشرب ظبياً لحظه فى القلوب غير أمين
راح يسقى فصب فى الكأس نزراً ثقة منه بالذى فى العيون

وقوله فيه وفيه حسن تعليل وجناس وتورية :

عابوا وقالوا بساقه شعر لقد عداه الكمال عن ساق
قلت انظروا ورد روض جنته وكل ورد مشوك الساق

وقوله وفيه حسن تعليل :

فوالله ما اعتل الأصيل وإنما تعلم من شجوى فبان اعتلاله

وقوله فى وصف ليلة وقد تقدم :

رعشت كواكب جوها فكأنها ورق تقلبها بنان شحيح

وقوله وقد تقدم :

وخضيبة المنقار تحسب أنها نهلت بمورد دمعى المسفوح

ومن النوع الثالث وهو ما يؤخذ عليه من القصور عن الاجادة فى استعمال بعض الألفاظ وتصور بعض المعانى .

فمن ذلك قصيدة يمدح بها السلطان أبا حمو من بنى زيان ملوك تلمسان :

قسما بمن رفع السماء بغير ما | عمد ورفع فوقها إدريسا
ودحا البسيطة فوق لج مزبد | ما إن يزال على القرار حبيسا
حتى يهيب بأهلها الوعد الذى | حشر الرئيس إليه والمرءوسا
ما أنت إلا ذخر دهرك دمت فى الـ | ـصون الحريز ممتعا محروسا
لو ساومته الأرض فيك بما حوت | لرآك مستاما بها مبخوسا
حلف البرور بها ألية صادق | ويمين من عقد اليمين غموسا
من قاس ذاتك بالذوات فانه | جهل الوزان وأخطأ التقييسا
من أنكر الفضل الذى أوتيته | جحد العيان وأنكر المحسوسا
من دان بالاخلاص فيك فعقده | لايقبل التمويه والتدليسا
أما سياستك التى احكمتها | ورميت بالتقصير رسطاليسا
فلو ان كسرى الفرس أبصر بعضها | ما كان يطمع أن يعد بسوسا
لوسار عدلك فى السنين لما اشتكت | بخسا ولم يك بعضهن كبيسا
ولو الجوارى الخنس انتسبت إلى | أقدام عزمك ما خنسن خنوسا

ومبالغاته على هذا النحو كثيرة وهى شنشنة نعرفها من جميع شعراء المتأخرين، وفيما ذكرنا غنية عن بقيتها.

ومنها احتجاجه بالقواعد العلمية واستعمال أساليب العلماء مما يخرج الكلام عن دائرة الاسلوب الشعرى ويبعده عن صحة الأدب كقوله:

وتقطة قلب أصبحت منشأ الهوى | وعن نقطة مفروضة ينشأ الخط

وقوله فى ختام هذه القصيدة:

حياتك للاسلام شرط حياته | ولا يوجد المشروط إن عدم الشرط

وقوله.

وأضف إلى لام الوغى لام القنا | تظهر عليك علامة التغليب

وقوله منها فى ممدوحه:

ويرى الحقائق من وراء حجابها | لافرق بين شهادة ومغيب

ومنها فى وصف الفوارس:

شهب ثواقب فى سماء عجاجة | مأثورها قد صح بالتجريب

وقوله:

وياقلب لاتلق السلاح فربما | تعذر فى الدهر اطراد المقاييس
ولا تخش لج الدمع ياخطر الكرى | إلى الجفن، بل قيسى على صرح بلقيس

وقوله فيها :

لئن أنكرت شكلى ففضلى واضح وهل جائز فى العقل إنكار محسوس

وقوله فى ممدوحه :

أما سعودك فهو دون منازع عقد بأحكام القضاء مسجل

ومنها إغارته على كثير من معانى المتقدمين وليس ذلك بكبير عار عليه فذلك ديدن كل الشعراء قديمهم وحديثهم وإنما يستهجن من الشاعر قلة تصرفه فى المعنى الذى اختلسه من غيره بتزيين اللفظ أو بزيادة لطيفة فيه، فمن ذلك قوله :

ياناصر الدين لما قل ناصره ومطلع الجود فى الدنيا وقد أفلا
لولا التشهد والترداد منك له لم يسمع الناس يوما من لسانك لا

وهو معنى مأخوذ من قول الفرزدق أو غيره (لولا التشهد كانت لاؤه نعم) .

وقوله فى وصف صنيع سلطانى :

ماذا أحدث فى صنيع خلافة هشت إليه الشهب فى آفاقها
فكأنما الجوزاء حين تعرضت شدت لتخدم فيه عقد نطاقها

أخذه من قول الأول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

وقوله :

فلولا أننى ما اهتدى نحو مضجعى خيالكم بالليل حين يزور

أخذه من قول المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أنى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وإن كان نسج ابن الخطيب ألطف وأرق

وقوله :

إن اللحاظ هى السيوف حقيقة ومن استراب فحجتى تكفيه
لم يدع غمد السيف جفنا باطلا إلا لشبه اللحظ يغمد فيه

فهذا مع تقصيره فى تجلية معناه ، وتأديته بعبارات نابية عن أسلوب الشعر والأدب وأشبه بعبارات الفقهاء والمتكلمين أخذه من قول القائل :

بين اللحاظ وعينيه مناسبة من أجلها قيل للاغماد أجفان

وأخذ غير ابن الخطيب هذا المعنى من قائله وأجاد فيه بقوله:

إن العيون النجل أمضى موقعاً من كل هندى وكل يمانى
فضل العيون على السيوف بأنها قتلت ولم تخرج من الأجفان

وقوله وإن كان تصرف فى المعنى بعض التصرف:

قد كان يسترنى ظلام شبيبتى والآن يفضحنى صباح مشيبى

أخذه من قول المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وقوله :

واصبر على مضض الليالى إنها لحوامل سيلدن كل عجيب

أخذه من قول الاول :

والليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

وقوله فى ابى عنان سلطان المغرب وآبائه :

فأبو عنان عن على نصه للنقل عن عثمان عن يعقوب
جاءوا كما اتسق الحساب أصالة وغدوا (فذلك) ذلك المكتوب

أخذ من قول ابى الطيب فى عضد الدولة :

من مبلغ الأعراب إنى بعدها شاهدت رسطاليس والاسكندرا
ومللت نحر عشارها فأضافنى من ينحر البدر النضار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الاله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى (فذلك) إذ أتيت مؤخرا

فلفظ (فذلك) كان يكتبه الحساب فى حاصل الجمع بعد تفصيل مفرداته فيكتبون فى آخر الحساب فذلك كذا وكذا .

وقوله من سينية عارض بها سينية أبى تمام التى أولها :

أقشيب ربعهم أراك دريسا تقرى ضيوفك لوعة ورسيسا

وأغار على بعض معانيها وقوافيها:

لم ترج إلا الله جل جلاله فى شدة تكفى وجرح يوسى

أخذه من قول ابى تمام :

فصنيعة تسدى وخطب يعتلى وعظيمة تكفى وجرح يوسى

والخطب فى سرقاته طويل عريض نكتفى منه بما ذكرنا .

موشحاته

اخترعت الموشحات بالأندلس فى عصر بنى أمية، وبقيت محبوبة مرغوبا فيها فى التغنى واكثر اغراض الشعر فى عصر دول الطوائف ونصف عصر ولاة البربر من المرابطين والموحدين . ثم كادت تنسى ويرغب عنها إلى أن جددها ابن الخطيب فى دولة بنى الأحمر وذاع عنه كثير منها فى عدوة المغرب فعارضوه وحاكوه. وله فيها ديوان كبير لم يعثرنا الزمان عليه . وقد ذكر له المقرى فى

نفح الطيب طائفة منها أشهرها الموشحة التى عارض بها ابن سهل الاسرائيلى . وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الموشحة وذكر أكثرها فى مقدمته . ونوع هذه الموشحة بوزنها وقوافيها هو مايختص فى زماننا باسم الموشح الأندلسى وإليك نبذا من موشحاته :

جادك الغيث إذا الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما فى الكرى أو خلسة المختلس

ومنها :

فى ليالى كتمت سر الهوى بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر مافيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا أو كما هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

ومنها :

يا أهيل الحى من وادى الغضى وبقلبى مسكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أمس قد مضى تنقذوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرما يتلاشى نفسا فى نفس
حبس القلب عليكم كرما أفترضون خراب الحبس؟

وقوله :

ما لقلبى كلما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد
كان فى اللوح له مكتتبا قوله : «إن عذابى لشديد»
جلب الهم له والوصبا فهو للأشجان فى جهد جهيد
لاعج فى أضلعى قد أضرما فهى نار فى هشيم اليبس
لم تدع من مهجتى إلا ذما كبقاء الصبح بعد الغلس

احمد الاسكندرى

أين هى الزوجة الحقة ؟

بقلم : عبد الحميد العمروسى

حقاً وربى أسترشدكم! فقدضللت الطريق بعد أن أعيانى التعب ، وتنكبت السبيل بعد أن أضنانى الوصب ، باحثاً منقباً عن تلك التى تستحق بجدارة حمل هذا اللقب ، اللقب السامى ، لقب : « الزوجة الحقة » حيناً لجأت إلى مكالمة ذوى الخبرة فماً بفم ، فبعضهم أشار بالقروية الساذجة ، وآخرون أشاروا بالمدنيـة المتعلمة ، وحيناً استطلعت آراء الكتاب فى مقالاتهم ، والمتناظرين فى حوارهم وجدلهم ، فما ألفيت إلا خلافا فى الرأى أدى إلى التراشق بالأدلة الهدامة.

أرشدونى إلى تلك التى تستطيـع الاضطلاع بأعباء الزوجية على أتم وجه وأكمله: أهى القروية الجاهلة ، أم المدنية المتعلمة ؟ وإن لم تكن إحداهما ، فمن هى إذن ؟ ذلك ما سأحاول توضيحه وإن قلت : أرشدونى ، فلست أقصد بذلك شخصى فقط ، بل أقصد أفراد جنس الشباب الذين يرغبون فى العثور على شريكة لهم يزين مفرقها تاج الزوجية السامى.

أما القروية الجاهلة ، فلا أرتضيها زوجة ؛ لأمور ، منها :

تربية النشء : الحياة الزوجية لابد لها من مسرات تحقق السعادة ، وتجلب الرفاهية ؛ ومن مسراتها أن تشعر النفس وتحس أنها أنجبت بنين وبنات قدتعهدتهم يد العناية من الصغرفشبوا ونشئوا متوافرين على الخير ، مفطورين على الحرية وحب الوطن ، قادرين على حسن القيام بما أعدوا له ، لا كشباب اليوم الذين عكفوا على المفاسد؛ فمن لى بقروية تتفهـم طبائع الأطفال ، وتدرك نفسياتهم وميـولهم وغرائزهم ، فتتعهـدها بالرعاية والعناية حتى تثمر ثمرها ، وتؤتى أكلها ؟ من لى بقروية تجعـل من البيت حجرة دراسة يكمل فيها الأطفال مافاتهم فى المدرسة، وأنى لها كل هذا وهى التى تربت فى واد غير هذا الواد ؟

الميـــول والرغبـات : إن الشريكين لا بد ، لدوام شركتهما : من توافق فى الطباع، واتحاد فى الميول والرغبات ، وتقارب فى العقلية المدركة حتى يأنس كل بصاحبه، ويركن إليه فى العقيدة عن ثقة واطمئنان ؛ وكيف لهذه أن تتحد وإياى على طريق واحد؟ وكيف لها إذا خلوت بها أن تشبـع رغبتى فى خوض نواح عدة من الأحاديث الممتعة ؟ بل كيف لها إذا جئت متعباً أن تتلمس مواضع التعب فى النفس فتسرى عنهـا بلسانها السلس وتخفف آلامها بمحياها الضاحك ؟ كيف لها إذا رأتنى مغضباً تجنبت استمرار مشاكستى ومعاندتى واستفزازى؟ كيف لها إذا أخطأت هى التقدير فى عمل أو قول أن تقبل النصيحة وتنصاع للارشاد ؟ كيف لها كل ذلك وهى التى لا يمتد أفق عقلها إلى ما وراء الدار ، ولا إلى موضع خطوتها الثابتة ،

وهى التى لا تفهم من السعادة إلا أنها أكل وشرب؟ فهذا البون الشاسع فى الادراك، واختلاف النظرة إلى الحياة ، يخيل إلى أنه يجعل من المتعسر أن يستديم اتفاقنا ، أونطمئن إلى بعضنا ، أو أن نخلد إلى الدعة والاستقرار ، أو أن نهتصر بأيدينا غصون السعادة ...

حسن الذوق: من وظيفة المرأة الهيمنة على شؤون البيت، ولا ألزم لصاحبة هذه الهيمنة من الحساسية : أعنى أنها تدرك وتشعر بالغث والسمين ، وتتأثر تسيتها فرحا بنظافة موضع، واشمئزازاً وغضبا بقذارته أوسوء ترتيبه . فهذه الحساسية تدفع المرأة إلى تجميل كل ما تحت يدها من : أولاد ، وثياب ، ورياش ، وهى التى تحمل الرجل على الاطمئنان إلى كل ما تقدمه له ، وهى التى تجعل من البيت روضة تستنشق فيها الأسرة أريج الهناء، وعبير الراحة والهدوء . هذا النوع من الذوق لا تكفى فيه الوراثة ، بل لا بد له من الدرس والتعليم حتى يتربى ويصير عادة ثابتة ؛ فالمرأة التى لم تتهذب عقليتها ، ولم تتفهم ماهو سر الجمال، لا يرجى منها حسن نظام ولا جمال ترتيب وتنسيق؛ وكذا المرأة التى لا تدرس قوانين الصحة ولا تعرف الأمراض ومسبباتها ، والجراثيم ومضارها، لا تمكن أن تعنى العناية التامة بأمر الصحة والنظافة؛ بل تكون إلى البلادة أقرب ، لا تقشعر إن رأت صديداً فى عينى طفلها ، ولا تشمئز من تركه شهراً وشهرين بدون استحمام ، ولا ترى غضاضة من مضغ الطعام فى فيها ودسه فى فم طفلها؛ وهل المرأة الريفية توفرت لديها عادة حسن الذوق المنبعثة عن إدراك سر الجمال، وعن الدراية بخطر إهمال القوانين الصحية؟ كلا! فلاعجب إذا ألفيناها جامدة الذوق، خامدة الحساسية؛ ولقد شاهدت بعينى رجلا وأولاده وضيفاً — هو أنا — التفوا حول الخوان للغداء ، والزوج تحضر لهم الطعام وهى فرحة جذلة ، تخب فى سذاجتها ، ولما انتهت وقفت مسندة ظهرها إلى الحائط وعلى قيد خطوات منهم علها تسمع إعجابا بالطعام أو شكراً له ، حيث يسرها أن يطرق مسمعها مثل هذا الاطراء ، ولم تكتف بهذه الوقفة ، بل أرادت أن تتدخل فى الكلام ، أو على الأقل تسمعهم صوتها ، ففيم تتكلم ؟ فى حديث تظنه مقبولا ، فاذا هذا الحديث أن قالت موجهة الكلام لبعلها ما معناه : « بيت الأدب امتلأ والرائحة التى تهب منه أماتت الأوز والبط فعجل ومر بنزحه وإخلائه » فلم تشعر إلا وطبق « الملوخية » يرن فى صدرها ؛ على أنها إذا أرادت أن تتجمل جاء تجملها ناقصاً ، فهى تلبس سروالا نظيفاً ، فى حين لا تستحم ولا تستبدل بالقميص غيره ، وإذا همت بنظافة آنيتها ورياشها فلاتقوم بذلك شعوراً بالنظافة والحسن ، بل حتى لا توصم بالاهمال ، وحتى لا يغضب عليها الزوج فيهينها ...

فالقروية الجاهلة ليس فى مكنتها الاضطلاع بتربية النشء ، التربية المرجوة ، ثم لا تتقارب عقليتها من عقليتنا ، ولا تتفق ميولها وميولنا ، ولا تحوز الحساسية الذوقية التى تدفعها إلى كل ما هو جميل ، ومن ثم نستطيع الحكم بأنها لا تستحق حمل هذا اللقب السامى ، لقب « الزوجة الحقة ».

قد يقول أنصارها وأعوانها : إنها طاهرة القلب ، نقية السريرة ، محصنة ، عفيفة ؛ نعم : وإنى لأقرهم على ذلك وأوافقهم ، ولكن: هل هذه الصفات وحدها هى الصفات التى يجب أن تتوفر فى المرأة كربة بيت ؟ أظنهم يقررون معى أن هذه الصفات ما هى إلا ركن من أركان لا بد من توافرها جميعاً حتى تكون الحياة الزوجية : محبوبة ، سعيدة ، دائمة . على أنى أرى سذاجة الريفية كثيراً ما تكون خطراً قل أن تنجو الحياة الزوجية من العثار فيه ، فهى كستار رقيق لا يلبث أن يتمزق ويبدو ما بداخله من الحمق والهوجاء ، وما أشد صلابة رأسها حالة غضبها، فلا يجديها منطق أو تحايل أو إرهاب؛ فان دنوت منها ملوحا بيدك صممت على العناد وتمادت فى اللدد، وإن ابتعدت واستخدمت القول أطلقت لسانها من عقاله دون تدبر فى العواقب ، وأسمعتك من ثرثرتها مايذهب بحلمك ويطيش له عقلك، وهى فى ذلك معذورة ، فالناحية العقلية منها راكدة ، وقوة الصبر مختفية وسلامة الطوية غلابة.

وإذا كانت هذه هى الريفية وهذا هو أمرها ، فهل ياترى سنجد بغيتنا فى المدنية المتعلمة أم ستوضع على الرف كما وضعت سابقتها ؟ سنرى ...

أجد الكثيرين ينصحون بالابتعاد عن المدنية المتعلمة وعدم الوقوع فى حبائلها ، وإن سألتنى وسألتهم عن علة ذلك أجبناك :

تربية النشء : لا أنكر، ولا يستطيع أحد أن ينكر، أنها تعرف من تربية النشء قدراً تمتاز به عن أختها الريفية، فالبيئة والمدرسة بلا مراء أثرتا فيها وأوقفتاها على حسن تعهد الصغار لو قامت هى بهذا التعهد؛ لكننا للأسف نرى الكثيرات منهن يعتنين بما يجلب المسرة لأنفسهن ولا يأبهن لأمر أولادهن، فيتركن شأن هذه الجسوم النورانية والأرواح الملائكية للخدم، وما أشد هؤلاء خطراً على الناشئة من كل الوجوه ، وما أقساهم على الصغار فى غيبة الأمهات ، وكثيراً ما يكونون وساطة تعارف بين الفتاة ومن تحب ، بل بين السيدة ومن تهوى .

تدبير المنزل : من الدعائم التى يبنى عليها صرح الحياة الزوجية ، ومجد الأسرة ، حسن قيام المرأة بأمور بيتها بنفسها ، ونقص هذا هو الداء العضال الذى لايزال جرحه دامياً فى بيوتنا ، وأرانى مضطراً إلى القول بأن المتعلمة قلما تحسنه ، وأنى لها ذلك ، وهى التى صرفت الشطر الأكبر من تعليمها فى غير هذا الجانب ؟ فبدل أن تتوافر على تعلم الطبخ والغسل والكى والكنس والحياكة، نراها أفنت شبابها فى مسائل على المواسير، وفى تمارين على الزوايا المنفرجة والقائمة ، وفى رسم شارع فيه شريطان يتلاقيان عن بعد ، وكأنى أتوقع غضبهن ، أما أنا فلا زلت أقرر أن بعضهن لايجدن طهى طبق أرز لضيف، أو حياكة قميص لصبى ، وإنما يجدن حقاً التجمل والتزاور ، والولع بالأزياء، واللف فى المتاجر. على أنه ينبغى ألا يفهمن أن هذا يمنع من أنه يوجد بينهن قليلات يستطعن اتقان القيام بالبيت ولوازمه ؛ لكنهن

باللأسف يترفعن عن مباشرة ذلك بهذه الأيدى المدهونة الأظافر فيتركن الأمر فيه إلى غيرهن

الميول والرغبات : وإن كانت الريفية فى الحضيض من الادراك فبعضهم يختارها عن عالية الادراك مفضلا أخف الضررين ؛ وهنا تعرض لى فكرة وهى : إذا كنا نميل ونرغب فى الزوجة التى تهذب عقلها ، ونمت مداركها ، وأحاطت بعض الاحاطة بالعالم وما فيه، فتستطيع مجاراتنا فى شتى النواحى الكلامية ، ونستطيع التفاهم معها على أساس العقل والمنطق حتى تحسن علاقتنا، ويسودنا جو من الدعة والاستقرار. أقول: إذا كنا كذلك فلماذا يختار بعض الجاهلة دونها ؟ يقولون نفس المرأة بطبيعتها تغلب عليها الناحية الوجدانية: وإذا كانت متعلمة فى حيازة رجل ودفعها الوجدان وخيل إليها أنها فى مرتبة ، إن لم تكن فى مستواه، فهى أعلى منه فلا تقر له بالرياسة،ولا ترى نفسها مجبرة على الخضوع لرأى مالم يوافق مزاجها؛ وهنا كل الخطر إن كان ذا شمم وإباء، وهذا النقص فى إدراك مركزها مرجعه إلى أنها لم تدرب فى حياتها المدرسية على معاملة الأزواج ، وكيف تتفهم طبائعهم ، وتتشرب أغراضهم وميولهم . . .

قد يقول أنصارها وأعوانها: إن فيها رقة وظرفاً، نعم: إنها لكذلك، ولكن متى؟ فى الوقت الذى تكون أنت فى حل منها ، ولم ترتبط وإياها برباط مقدس. فهى لاتزال تعطيك من ظرفها وعذب ألفاظها مادامت الصلة صلة تعارف مبدئى، وصداقة يرجى منها خير، فاذا ماانتقلت من حياة التعارف إلى حياة أخرى تتصل حلقاتها وتتوثق عراها توثقاً شرعياً ، فسرعان ماترى نظرك قد خدعك ، وسمعك كذبك ، والسهام توجهت إلى فؤادك .

وإذا كان الأمركما قد علمتم، وسمعتم ، أن الريفية يختارها فريق على جهلها خوفاً من متاعب المتعلمة ، وأن المتعلمة يرغب فيها بعضهم حباً فى ظرفها مع التغاضى عما سواه ، أفلا ترون معى أن بيئتنا المصرية تنقصها طبقة من الآنسات ينلن رضا الجميع ويحزن كل الثقة ؟ أين هى هذه الطبقة التى تجمع إلى التعليم والالمام بشؤون تربية الصغار ، والخبرة بأمور المنزل ، والميل الحق إلى تعهد البيت بنفسها ، والشعور بأن الرجل هو هو صاحب الرياسة فى الأسرة وعلى كل أفرادها الخضوع له بالطاعة والاحترام .

لا ننسى أن فى البيئتين : الريفية والمدنية ، فتيات لا غبار عليهن ، ولكن : هل هن بالكثرة إلى درجة الراغبين ؟ إنا نطالب المسئولين العمل على توفير هذه الطبقة المفقودة، فكل توان عن توفيرها عمل على تفاقم كساد الزواج ، وجناية ضد أولانا القادمين ؟

عبد الحميد العمروسى

عبرة من التاريخ كلمات تذهب بملك آل صفرة

للمؤرخ الكبير : الشيخ عبد الوهاب النجار

استاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

ختام البحث

بعد أن عرضنا تلك الاحوال التى تكلمنا عنها فى الأجزاء السابقة لهذا الجزء من « المعرفة » لا يسعنا إلا أن نقول إن الجيش الذى جمعه يزيد لم يذهب إلى ساحة القتال بدافع من النفس، ولا حافز من الحمية، أو الأنفة من الضيم، ولم يكونوا متبصرين فى عملهم.

إن الانسان الذى يقاتل بجد ويخوض غمرات الموت مجتهدا، لا بد أن يكون مدافعا عن مبدأ تغلغل فى أعماق النفس، وعقيدة ملكت عليه مشاعره، أو حق له قد غصب، أو غاضبا لمجد قد أهين وشرف قد هيض جانبه، أو دين استمات فى إعلانه ورفع شأنه؛ ولكن لا شيء من ذلك حرك الجموع التى مع يزيد؛ ولكنهم قوم رأوا أميرا مبسوط اليد يعطى باليمين وباليسار، وقد عود الظفر وعرف فيه يمن النقيبة وكرم النفس وسماحة الكف، فهم يتبعونه ابتغاء غنيمة ينالونها، أو فائدة معجلة يرجونها، ومثل هؤلاء لا يأخذون أنفسهم بالصبر على حر السلاح ، ولا يرون بضعة دراهم كافية لبذل أنفسهم فى سبيل الحصول عليها ؛ فهؤلاء إذا جد الجد لم يكن لهم هم إلا نجاة أنفسهم .

وكان يزيد بن المهلب يحس ذلك ويحسب حسابه ؛ فقد روى ابن الاثير أنه قال : لقد أحصى ديوانى مائة وعشرين ألفا، لوددت أن لى بهم من بخراسان من قومى .

من ذلك نعلم أن الروح المعنوى ـ أى الحال النفسية ـ فى جيش يزيد لم يكن قويا؛ والروح المعنوى للجيوش مدد عظيم ، وعامل من عوامل النصر، إذا فقده الجيش فقد اكبر عوامل الظفر .

التقاء الجيشين : فى اليوم الرابع عشر من شهر صفر سنة ١٠٢ هـ عبى كل قائد جيشه وتهيأ للقتال ، وأمر مسلمة قائدا من جنده، يقال له الوضاح، أن يخرج ومعه السفن حتى يحرق الجسر الذى ليزيد بن المهلب، ففعل ، وكان جيشا الشام موحدى القيادة .

وتقدم يزيد إلى الميدان، فلما ابتدأ القتال ولم يشتد سطع دخان الجسر، ونظر جند يزيد اليه طاروا لا يلوون على شيء، وعلم يزيد بانهزامهم فتعجب مم انهزموا ! ولم يكن قتالا ينهزم الجندى من مثله، وحاول رد المنهزمين فأتاه منهم امثال الجبال فأعجزوه فتركهم.

عاد يزيد إلى القتال لأن مثله أكبر من أن ينهزم ؛ وكان أبطال العرب يرون القتل فخر
والانهزام عارا ... قال ابن الاثير : وكان يزيد لايحدث نفسه بالفرار،ومن قبل قد أتاه يزي
ابن الحكم بن أبي العاص الثقفى وقال له :

إن بنى مروان قد باد ملكهم   فان كنت لم تشعر بذلك فاشعر

فقال له يزيد : ماشعرت ؛ فقال ابن الحكم :

فعش ملكا أومت كريما فان تمت   وسيفك مشهور بكفك تعذر

فقال يزيد: أما هذا فعسى.

من هذا نعلم أنه كان موطنا نفسه على إدراك الميتة الكريمة إذا مافاته النصر .

فى ذلك الوقت أخذ من كانوا يكرهون القتال يتسللون،وقد بقيت معه جماعة وهو يزدلف
إلى عدوه ، فكلما مر بجماعة كشفها، وبعض الجماعات كانوا يعدلون عنه وعن أصحابه هيبة له

***

فى ذلك الوقت العصيب جاء أبو رؤبة المرجى وقال ليزيد : ذهب الناس، فهل لك أن تنصرف
إلى واسط ،فانها حصن تنزلها ويأتيك مدد أهل البصرة وأهل عمان والبحرين فى السفن
وتضرب خندقا ؟ فقال له قبح الله رأيك ، إلى تقول ذا ؟ الموت أيسر على من ذلك ؛ فقال
فانى أتخوف عليك ، أما ترى حولك من جبال حديد ؟ فقال: فأنا أباليها جبال حديد كانت أ
جبال نار ؟ اذهب عنا إن كنت لا تريد قتالا معنا .

أقبل يزيد لا يريد غير مسلمة حتى إذا دنا منه دعا مسلمة بفرسه يركبه ؛ ولم تلبث خيول
أهل الشام أن عطفت على يزيد وعلى أصحابه فانفرجت عن يزيد قتيلا .

ذلك أن رجلا من أهل الشام يقال له القحل لما رأى يزيد مقبلا،قال:يا أهل الشام!هذا يزي
والله لأقتلنه أو يقتلنى؛ وطلب اليهم أن يحملوا معه على أصحاب يزيد فى الوقت الذى يحمل في
على يزيد ففعلوا، وانفرج الفريقان عن يزيد وهو قتيل، والقحل مثبت بآخر رمق، وقد أشا
إلى يزيد وإلى نفسه كأنه يقول لهم: أنا قتلته وهو قتلنى.ولما أتى مسلمة برأسه سيره إلى يزي
ابن عبد الملك .

كان المفضل بن المهلب فى ذلك الوقت يقاتل أهل الشام ولا يدرى بمقتل يزيد ولا بهزيمة من
انهزم، وفى أثناء قتاله انهزم من معه من ربيعة فأخذ يقول لهم: يا معشر ربيعة! الكرة الكرة
والله ما كنتم بكشف ولا لئام،ولا لكم هذه بعادة، فلا يؤتين أهل العراق من قبلكم فدتكم نفسى
وكأن كلماته أثرت فى ربيعة فرجعوا اليه يريدون الحملة ؛ وفى تلك اللحظة جاءه من قال له
ما تصنع ههنا وقد قتل يزيد وحبيب ومحمد وانهزم الناس منذ طويل ؟

وهنا تمت الهزيمة على جيش يزيد بن المهلب ، قال ابن الأثير فى وصف المفضل : ومضى

المفضل إلى واسط، فما كان من العرب أضرب بسيفه، ولا أحسن تعبية للحرب، ولا أغشى للناس منه.
وقيل إن المفضل لم يعلم بقتل يزيد ولم يريدوا أن يعلموه ذلك خشية ان يستميت، بل قيل له إن الامير يزيد قد انحدر إلى واسط فانحدر المفضل بمن بقى من ولد المهلب. وكان المخبر له أخوه عبد الملك بن المهلب؛ فلما علم بقتل يزيد حلف أنه لا يكلم عبد الملك أبدا، فما كله حتى قتل بقنداييل، وكانت عينه أصيبت فى الحرب، فكان يقول: ماعذرى إذا رآنى الناس فقالوا شيخ مهزوم أعور إلا صدقنى فقتلت؟ ثم قال:

ولاخير فى طعن الصناديد بالقنا   ولافى لقاء الحرب بعد يزيد

احتياط لم ينفع وغدر مؤتمن: كأنى بيزيد بن المهلب كان يشعر بنفسية جنده من اهل البصرة وغيرهم، ويخشى على أخوته وبنيه وبنى أخوته مغبة هزيمة الجند، فاحتاط لأخوته وولده وولد اخوته احتياطا لم يقصر فيه، وإن كان لم يغن عنهم شيئاً.

ذلك أنه بعث وداع بن حميد الازدى والياً على قنداييل وبالغ فى وصيته، وكان فيما قال له: إنى سائر إلى هذا العدو، ولو قد لقيتهم لم أبرح العرصة حتى يكون الأمر لى أو لهم، فان ظفرت أكرمتك، وإن كانت الاخرى كنت بقنداييل حتى يقدم عليك أهل بيتى فيتحصنوا بها حتى يأخذوا أمانا، وقد اخترتك لهم من بين قومى، فكن عند حسن ظنى بك. وأخذ عليه العهود والمواثيق ليناصحن أهل بيته إن هم لجأوا اليه.

ندع وداعا بقنداييل ونعود إلى المفضل وآل المهلب، فنراهم قد اجتمعوا بالبصرة وحملوا عيالاتهم واموالهم فى السفن البحرية، حتى إذا كانوا بحيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم واموالهم على الدواب، وكان المقدم عليهم المفضل بن المهلب.

أما مسلمة بن عبد الملك فأرسل مدرك بن ضب الكلبى فى طلبهم، فأدرك مدرك المفضل ومعه الفلول فى عقبه، فكانت بين الفريقين وقعة شديدة قتل فيها كثير من اصحاب المفضل، وطلب بعض الفالة، الذين معه، الأمان فأمنوا، ومضى المفضل بعد الموقعة يريد قنداييل، وأراد دخولها فمنعهم وداع بن حميد وقلب لهم ظهر المجن، وحال بينهم وبين قنداييل ولم يرع الامانة ولم يف بما عاهد عليه يزيد بن المهلب.

ولما جاء هلال بن أحوز التميمى فى جيش من قبل مسلمة يريد قتال المفضل وآل المهلب، رفع راية أمان، فمال إليه وداع بن حميد ومن معه، ومال إلى راية هلال بن احوز عبد الملك بن هلال الازدى، وكان على ميسرة المفضل.

رأى مروان بن المهلب تفرق الجنود عن آل المهلب فاخترط سيفه ويمم نحو حرم آل المهلب والذرية، يريد أن يقتلهم خشية ان يقعوا فى يد مسلمة بن عبد الملك، فمنعه المفضل وقال: إنا لا نخشى عليهن من هؤلاء.

عقب ذلك تقدم آل المهلب بأسيافهم وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وبعث هلال بن أحوز برؤوسهم ونسائهم وذريتهم إلى مسلمة بن عبد الملك، وفى أذن كل رأس لواحد منهم بطاقة فيها اسمه ، فبعث بهم مسلمة إلى يزيد بن عبدالملك ، فسيرهم إلى العباس بن الوليد ، وهو على حلب ، فنصب الرؤوس ؛ وأراد مسلمة أن يبيع نساء آل المهلب وذراريهم، فاشتراهم منه الجراح الحكمى بمائة الف درهم وخلى سبيلهم ، واراد مسلمة أن يقتضيه المال فقال له: إذا شئت، فلم يقبض منه شيئاً .

وإليك ثبتا بأسماء من قتلوا من آل المهلب فى هذه الحوادث، وعددهم وعدد الأسرى منهم الذين قتلهم يزيد بن عبد الملك :

الوقعة قرب الانبار

اسماء القتلى : يزيد بن المهلب . حبيب بن المهلب. محمد بن المهلب.

القتلى بقندابيل: المفضل بن المهلب . عبدالملك بن المهلب. زياد بن عبدالملك بن المهلب . مروان ابن المهلب . معاوية بن يزيد بن المهلب . المنهال بن ابى عيينة بن المهلب . عمرو بن قبيصة ابن المهلب. المغيرة بن المهلب .

وأرسل الأسرى إلى يزيد بن عبد الملك، وكانوا أحداثا فقتلهم؛ ويقول ابن جرير الطبرى: إنهم كانوا تسعة، ويقول ابن الاثير: إنهم كانوا ثلاثة عشر،وقد أورد أسماء أحد عشر شخصا منهم وهم :

المعارك بن يزيد بن المهلب . عبد الله بن يزيد بن المهلب . المغيرة بن يزيد بن المهلب . المفضل بن يزيد بن المهلب . منجاب بن يزيد بن المهلب . دريد بن المفضل بن المهلب . الحجاج بن المفضل بن المهلب . غسان بن المفضل بن المهلب . شبيب بن المفضل بن المهلب . الفضل بن المفضل بن المهلب . المفضل بن قبيصة بن المهلب .

وقد ذكر ابن الأثير أن الاسرى لما أخرجهم يزيد بن عبد الملك يريد قتلهم نظر إليهم كثير عزة الشاعر وقال :

حليم إذا مانال عاقب مجملا أشد العقاب او عفا لم يثرب
فعفوا أمير المؤمنين وحسبة فما تأته من صالح لك يكتب
أساءوا فان تصفح فانك قادر وأفضل حلم حسبة حلم مغضب

فقال يزيد : هيهات يا أبا صخر ! عطفت بك الرحم ، لاسبيل إلى ذلك، إن الله أقادنيهم بأعمالهم الخبيثة ؛ ثم أمر بهم فقتلوا وبقى غلام صغير فقال: اقتلونى فما أنا بصغير، فقال: انظروا أأنبت؟ فقال أنا أعلم بنفسى ، قد احتملت ووطئت النساء؛فأمر به يزيد فقتل .

الذين نجوا من آل المهلب : بما تقدم اصطلم جند يزيد بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك آل المهلب، ولم ينج منهم سوى ثلاثة نفر ، وهم : ابو عيينة بن المهلب، وعمر بن يزيد بن المهلب، وعثمان بن المفضل بن المهلب، فانهم لحقوا برتبيل إلى أن أمنوا الواحد بعد الآخر في أزمان متطاولة.

***

فرغت ساحة دولة آل مروان من آل المهلب بعد أن كانوا عمادها، وأقاموا منارها، وكانوا زينتها وبهجتها ، بادوا أحوج ما كانت الدولة إلى دفاعهم عنها واعتزازها بمكانهم .

بادوا وقد بدأ آل العباس يعملون على تقويض بنائها واجتثاثه من أصوله ، وألفوا الجمعية السرية لنشر دعوتهم في خراسان للقضاء عليها ؛ ولم يمض على هلاكهم ثلاثون سنة حتى خرت تلك الدولة صريعة : لليدين وللفم ، ولم تجد محاميا ولا مدافعا، فكان ذهاب دولة آل المهلب نذيراً بذهاب دولة آل مروان، وتلك الايام نداولها بين الناس .

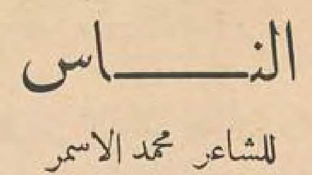
وقد قال ثابت قطنة، وهو ثابت بن كعب بن جابر العتكي الازدي، المراثي الكثيرة في يزيد وآل المهلب غير مبال بسلطان بني أمية؛ فمن ذلك قوله :

ألا يا هند طال على ليلي	وعاد قصيره ليلا تماما
كأني حين حلقت الثريا	سقيت لعاب أسود أوسماما
أمر على حلو العيش يوم	من الأيام شيبني غلاما
مصاب بني أبيك وغبت عنه	فلم أشهدهمو ومضوا كراما
فلا والله لاأنسى يزيداً	ولا القتلى التي قتلت حراما
فعلي أن أبؤ بأخيك يوماً	يزيداً أو أبوء به هشاما
وعلى أن أقود الخيل شعثا	شواذب ضمرا تقس الأكاما
فأصبحهن حمير من قريب	وعكا أن أرع بها جذاما
ونسقى منه حجاً والحي كلباً	من الذيفان أنفاساً قواما
ولولاهم وما جلبوا علينا	لأصبح وسطنا ملكا هماما

عبد الوهاب النجار







الناس

للشاعر محمد الاسمر

مضت ثلاثون عاما فتشت بها ... منقبا عن أخ صدق فلا أجد

ولست أياه : أنا كلنا بشر ... لا الفرع زاك ، ولا أعراقه مجد

نرمى الوحوش بما فينا، وندفعها ... عنا، وأفضل منا الذئب والاسد

وما ثياب بنى حواء فوقهم ... إلا جلود سباع الغاب واللبد

***

هم المراءون والباغون مذ خلقوا ... وأدعياء التقى والعدل مذ وجدوا ؟

صحبتهم ، فأساءوني وسؤتهم ... مكر بمكر، وإن لم يعترف أحد

ليحذر الناس منى ، إنى حذر ... منهم، وحسبي أن أعلنت ما جحدوا

تضاحكوا، وحمى الاعراض بينهم ... باك ، وأحشاؤهم مما بها تقد

لا خير فى الناس ، لولا غفلة عرضت ... أودى بأكثر من صافاهم الكمد

حتى الاخلاء في الدنيا نساء بهم ... في كل يوم وحتى الاهل والولد

محمد الاسمر



القواعد الجديدة

في العربية

للأستاذ مصطفى جواد

إن الظفر بقواعد عربية جديدة من المستبعد أشد الاستبعاد، ولكننا قد ظفرنا بهذه القواعد بعد استقراء طويل وترجيح رزين فنقول:

١ — يجوز صوغ اسم فاعل من (فاعله يفاعله) على وزن (فعيل) مثل (شابهه فهو شبيهه وكالمه فهو كليمه، وضاهاه فهو ضهيه، ووازره فهو وزيره) (١) ، وإن جهل القدماء لهذه القاعدة المطردة سبب استبهام أصل (الوزير) عليهم .

٢ — يجوز صوغ اسم فاعل من (فاعله) أيضاً على وزن (فعل) مثل (باده فهو بده) و (تابعه فهو تبعه) و (تاربه فهو تربه) و(حالفه فهو حلفه) و(خادنه فهو خدنه) و(خالفه فهو خلفه) و (راءده فهو رئده) و(رادفه فهو ردفه) و(زامله فهو زمله) و(زاورها فهو زيرها) و (سابه فهو سبه)و(سالفه فهو سلفه) و(ساواه فهو سيه) و (شابهه فهو شبهه) و (عادله فهو عدله) و(طابقه فهوطبقه) و(قارنه فهوقرنه) و(كافأه فهوكفؤه) و (لاصقه فهو لصقه) وبالابدال:(لاسقه فهو لسقه) و(ماثله فهو مثله)و(ناده فهو نده) و (ناظره فهو نظره) و (وأده فهو وده) وغيرها، ومنه (خالصه فهو خلصه) .

٣ — اسم التفضيل يصاغ من المصدر أو اسم المصدر: فالأشغل من الشغل، والأجن من الجنون، والأحوط من الحيطة، والآدى من الآداء ، والأشبه من الشبه، والأنسب من النسبة ، أماالقاعدة عندهم ففيها الشواذ المئون .

٤ — اسم الآلة يصاغ من المصدر أو الاسم : فالمفتاح من الفتح ، والمحراك من الحركة ، والملبن من اللبن ، والممطر من المطر، والمهدى من الهدية ، والمصباح من الصبح .

٥ — مفعال يصاغ من المصدر أو الاسم :فالمفضال من الفضل، والمغلاط من الغلط، والمئناث من الأنثى، والمذكار من الذكر، والمغوار من الغارة، والمشناء من الشنآن، والمنجاد من النجدة.

٦ — مفعال يأتي بمعنى (ذي كذا) مثل: المشناء فهوذوالشنآن، والميتاء بمعنى ذي الاتيان، والمحلال أي ذي الحلول، والمئناث أي ذات الاناث، والمذكار أي ذات الذكور .

٧ — أسماء الأفعال هي أفعال جامدة، فلا فرق بين قولك (هب) الذي بمعنى (احسب) و (صه) بمعنى اسكت من حيث الوضع والاصطلاح .

---

(١) ان الذي ينعم النظر في « الشبيه والضهي والعشير والكليم » ويرى أن ليس في أفعالها مايدل على هذا المعنى يؤمن بصحة هذه القاعدة قبل أن نسرد له الامثال مئات .

٨ — مصدر الهيئة يصاغ من المصدر والاسم فتقول : هو هين الأخذة من الأخذ، وحسن النقبة من النقاب، والعمة من العمامة، والجيبة من الجواب والجابة .

٩ — تكون الباء عوضاً من لام التقوية فتقول : شابهه فهو شبيه له وبه، وله وبه أشبه، ومسه وهو له وبه أمس، وناسبه وهو له وبه أنسب، وقال القول الحق وهو أقولهم له وبه .

١٠ — تكون الباء عوضاً من (مع) ومن (علامة الاشتراك) مثل : اجتمع معه واجتمعا واجتمع به ، واختلط معه واختلطا واختلط به، وامتزج معه وامتزجا وامتزج به ، واتحد معه واتحدا واتحد به ، والتصق معه والتصقا والتصق به .

١١ — تكون (مع) بدلا من ألف الاثنين وعلامة المشتركين فتقول : اشتركا وهما مشتركان واشترك معه وهو مشترك معه ، وتشاركا وهما متشاركان وتشارك معه وهو متشارك معه ، واصطدما واصدم معه وتصادما وهو متصادم معه .

١٢ — يصاغ مصدر على وزن (فاعلة) اطراداً مثل: الآمرة والجازية والعائدة والخاصة والكاذبة والداعية واللائحة والبارقة والناهية والناعية وغيرها .

١٣ — فعل بفتح الفاء وتسكين العين الصحيحة (١) يجمع مطردا على (أفعال) مثل: (بعض أبعاض) و(جد أجداد) و(أنف آناف) و(رمس أرماس) و(وسطر أسطار) و(سمع أسماع) و(غمض أغماض) و(فرد أفراد) و(شخص أشخاص) و(فذ أفذاذ) و(فرخ أفراخ) و(فن أفنان) و(فسل أفسال) و(فظ أفظاظ) و(فز أفزاز) و(فل أفلال) و(قلد أقلاد) و(قلس أقلاس) و(شن أشنان) و(كبش أكباش) و(لحن ألحان) و(لحظ ألحاظ) و(لفظ ألفاظ) و(لطع ألطاع) و(وضع أوضاع) و(وسق أوساق) و(وغد أوغاد) و(شطء أشطاء) و(وجر أوجار) و(وحش أوحاش) و(وخش أوخاش) و(ووفد أوفاد) .

ثم ورب أوراب، ورد أوراد، ورص أوراص، وزن أوزان، وطب أوطاب، وغب أوغاب وفع أوفاع ، وعس أوعاس ، وقب أوقاب ، وقت أوقات ، وقط أوقاط ، وقف أوقاف ، وكر أوكار وفز أوفاز ، محل أمحال ، مرش أمراش ، مرع أمراع ، مرق أمراق ، مرك أمراك ، من أمنان ونبذ أنباذ ، نبض أنباض ، نجد أنجاد ، نجل أنجال ، نحو أنحاء ، نخ أنخاخ ، ندل أندال، زند أزناد ، نسل أنسال، هجل أهجال ، هك أهكاك ، أب أوآب ، قل أوقال ، وهط أوهاط نجم أنجام، وغيره كثير بله الوارد بوجهين مثل: شكل أشكال، وحبر أحبار، ومايجوز تسكين عينه وفتحها مثل : نهر وأنهار ، وشعر وأشعار، قياسا لكون الحرف الثاني من أحرف الحلق .

١٤ — كل اسم على وزن «فعلة» بتثليث الفاء وتسكين العين أو فتحهما معا يجمع على «فعال» بكسر الفاء قياساً نحو: حربة وحراب، وبرمة وبرام، وعلبة وعلاب، ونطفة ونطاف، ونقطة ونقاط، ونكتة ونكات، وعكة وعكاك، وعكوة وعكاء، وغرفة وغراف، وفرضة وفراض، وقبة وقباب، وقذة

(١) قيدناه بهذا القيد لأنهم ذكروا قياسية المعتل العين وخروجه عن حد القلة .

وقذاذ ، وقذفة وقذاف، وقلة وقلال، وقنة وقنان، وكفة وكفاف، وكنة وكنان، ولجة لجاج، ولمعة لماع ، ونصة نصاص، ونقرة نقار (كلها مضمومة الفاء ماعدا الحربة) ورمة رمام، ورهمة رهام، وذهبة ذهاب، وكفة كفاف، وإبرة إبار، ولقحة لقاح؛ ولمة لمام، وليطة لياط، ومرة مرار (كلها مكسورة الفاء) وأ كمة إكام، وأمة إماء، وحدقة حداق، ورقبة رقاب، وعجلة عجال، وقحدة قحاد، وقضيفة وقضاف، ولخصة لخاص، ولهقة لهاق، ولهاة لهاء، ونجفة نجاف، ونفقة نفاق، ونقدة نقاد، (كلها مفتوحة الفاء والعين معا) وقد أقللنا من ذكر «فعلة» بفتح فسكون على «فعال» لنص العلماء على القياس فيها ؛ ولكن قاعدتنا عامة لا بد منها، ومنها مالم نذكره كشبكة وشباك وغيره.

١٥ ـ كل «فعل» بتثليث الفاء مع تسكين العين يجمع على «فعلة» بكسر ففتح مثل: ترس ترسة، وتيس تيسة، وثور ثورة، وحب حببة، وجحر جحرة، وجحش جحشة، وجزر جزرة، وخرف خرفة، وحسل حسلة، وحصن حصنة، وحلس حلسة، وحوت حوتة، وخر خررة، وخشف خشفة، وخلد خلدة، وخم خممة ، ودرص درصة، ودعص دعصة، ودك دككة، وديك ديكة ، وفيل فيلة، وذيخ ذيخة ، ورت رتتة ورخ رخخة ، وزج زججة، وزيج زيجة، وسخل سخلة، وسعن سعنة، وسنع سنعة، وعش عششة، وعفج عفجة، وعلج علجة، وعود عودة، وغصن غصنة، وغفر غفرة؛ وفدس فدسة؛ وفقع فقعة؛ وقحف قحفة ، وقرد قردة؛ وقرص قرصة، وقرط قرطة، وقط قططة؛ وقطب قطبة ، وقعب قعبة ؟ وقلب قلبة ، وكتف كتفة ، وكرز كرزة ، وكلع كلعة، وكم كممة، وكوخ كوخة ، وكوز كوزة ، وكير كيرة ، وكيس كيسة؛ ولص لصصة ، ومخ مخخة، ومد مددة، وطنب طنبة ، ومهد مهدة، ومهر مهرة ؛ وفأر فئرة، ونور نورة، وغيره كثير .

١٦ يجمع (فعيل) بمعنى فاعل أو مفاعل على (أفعال) نحو: بديل أبدال وجليد أجلاد وجرى أجراء وخصيم أخصام وسديل أسدال وشرير أشرار وقصى أقصاء وقمير أقمار وكمى أكماء وكيس أكياس وفنيق أفناق وقطيع أقطاع وشريف أشراف وشريك أشراك ومليح أملاح ونبيء أنباء ونسيب أنساب ونجيب أنجاب ونصى أنصاء ويتيم أيتام ومجيد أمجاد ونصير أنصار وقير أقيار ووشيط أوشاط ويمين أيمان وغيرها .

١٧ ـ (فعيل وفعيلة) بفتح فكسر يجمعان على «فعل» قياسا مثل : بريد برد وجديد جدد ورغيف رغف وجبين جبن وعميق عمق وغبيط غبط وعنيف عنف وغدير غدر وفطيم فطم وفقير فقر وقبيل قبل وقشيب قشب وقضيم قضم وقطين قطن وقليل قلل وسرير سرر وقليف قلف وقميص قمص وأصيل أصل وسديل سدل وفتين فتن وعبيط عبط وقنيف قنف وكنيف كنف وكثيب كثب ولطيم لطم ومثيل مثل ونذير نذر ونزير نزر وأسيس أسس ونصيب نصب ونصيل نصل ونضيح نضح ونجيد نجد ونجيف نجف ونجيب نجب ومرىء مرؤ ومعين معن ووطيس وطس ووضين وضن ووظيف وظف، مليع ملع ومتين متن وجزيرة جزر وسفينة سفن وشكيمة شكم وصحيفة صحف

وعميتة عمت وقطيفة قطف ومديدة مدد ومدينة مدن ووظيفة وظف وغيرها متوافر؛ فمن الأول: هجير هجر وهجين هجن وهزيع هزع ووتين وتن ووجين وجن .

١٨ـ (فعل) بكسر فسكون يجمع على «فعال» منقاسا نحو : زق زقاق ، شبل شبال، عجل عجال، عطف عطاف، فعل فعال ، فلو فلاء ، قدح قداح ، ظل ظلال، قط قطاط ، قطع قطاع قطف قطاف ، قلع قلاع ، كعم كعام، ملح ملاح ، لثم لثام ، لهب لهاب ، مطو مطاء ، نبر نبار، نبق نباق ، لصب لصاب .

١٩ ـ (فعلة) بفتح الفاء والعين وكسر الفاء وتسكين العين يجمع على (أفعال) مثل: حدقة أحداق، أكمة آكام، أجمة آجام ، عجلة أعجال ، طبقة أطباق ، قصرة أقصار، نطاة أنطاء ، نفقة أنفـاق ، وجرة أوجار ، ورقـة أوراق؛ ولجة أولاج، وزغة أوزاغ، ولاة آلاء (كلها بفتح ففتح أى بالتحريك) ومثل: أشيعة أشياع ، وفلذة أفلاذ، وفرقة أفراق ، وفيقة أفواق، وكسفة أكساف ، ولقوة إلقاء، وليطة ألياط، ونسعة أنساع، ونقضة أنقاض، (كلها بكسر فسكون) وهبوة أهباء، وعرصة أعراص .

٢٠ ـ (فعول) بفتح فضم يجمع على (فعال) قياسا مثل: قلوص قلاص، خروف خراف، نزوع نزاع ، عقوق عقاق ، لقوح لقاح ، مصور مصار ، مكون مكان .

٢١ ـ يصاغ من (فعل) كفرح اللازم صفة على وزن (فعيل) نحو: (ترف تريف)و (صغر صغير) و (أرب أريب) و (أمر أمير) و (وكبر كبير) و (جفس جفيس) و (ربك ربيك) و (رعش رعيش) و (ذكى ذكى) و (سجس سجيس) و (سمن سمين) و(حرك حريك) و (عفك عفيك) و (حى فهو حى) و (عى عى) و (فشل فشيل) و(فنع فنيع) و(فه فهيه) و(قشر قشير) و(كدى كدى) و(كشىء كشىء) و(لهع لهيع)و (لهف لهيف) و (لوى لوى) و (مذل مذيل) و (مرض مريض) و(مضر مضير) و(معص معيص) و (نبـه نبيـه) و (نتن نتين)و (نجد نجيد) و (نحز نحيز) و (ندب نديب) و (نضر نضير) و (نغل نغيل) و (نقب نقيب) و (رشد رشيد) و(نقر نقير)و(نـكب نـكيب)و(هرت هريت)و(وجى وجى) و(ودك وديك) و(وقع وقيع)و(حرص حريص) و(حزن حزين) و(يبس يبيس) و(يسر يسير) و (يقن يقين) وغيرها، ومما يجدر بالذكر أن فعل المتعدى من باب فرح يجرى هذا المجرى مثل (رحم رحيم) و (ضمن ضمين) و (علم عليم) و (فهم فهيم)

٢٢ ـ تصاغ الصفة المشبهة من (فعل) كفرح على وزن (فعلان) قياسا وإن لم تدل على امتلاء أوخلو نحو: (أسى أسيان) و (حرد حردان) و (حزن حزنان) و (حسر حسران) و (خزى خزيان) و (زعل زعلان) و (سلم سلمان) و (شهى شهوان) و (سخن سخنان) و (غضب

غضبان) و (فرح فرحان) و (عجل عجلان) و (لهف لهفان) و (يقظ يقظان) وغير ذلك، ولفعلان غرائب: كتيهان وحسان وحمدان وركبان وصفيان وغيران .

٢٣ ـ يصاغ (استفعل) للشيء إذا حان فعله مثل : استبنى الحائط أى حان بناؤه واستجر الصوف واستحصد الزرع واستحطب العنب واستحضر النهر واستحق الحق واستحمل الدابة واسترم البناء واستذرف الدمع واسترفع الخوان واسترقع الثوب واستقرن الدمل واستكشط البعير واستكوى الرجل واستلحقت الناقة واستمخضت الحامل ، واستمطرت الأرض واستنهج الطريق واستوقد السيف) وغيرها .

٢٤ ـ يصاغ من الاسم (فعل) بمعنى صار مثله نحو : بغل الحصان تبغيلا ودنر تدنيراً صار كالدينار وخدد اللحم تخديداً وصوح الشيء صار كالصواح وشيخ تشييخا وعونت تعوينا وعودت تعويدا وقوس تقويسا ومشطت تمشيطا وقعب تقعيبا وغيرها .

٢٥ ـ أسماء المصنوعات المنتهية بالهاء تحذف فيها الهاء لتكون اسم جمع كالأشياء الطبيعية ولا فرق بينهما فى هذا الحذف فالطبيعى المعروف قياسة مثل تمرة وتمر ونخلة ونخل والصناعى الجديد القياس مثل : آلة آل وبكرة بكر وجمرة جمر وحلقة حلق ودرجة درج ودرقة درق وراية راى ومزادة مزاد وشبكة شبك وسفينة سفين وعباءة عباء وملاءة ملاء وعلامة علام وعلاة علا وعمامة عمام وعمادة عماد وعنزة عنز وغرضة غرض وفوقة فوق وقرطالة قرطال وقلادة قلاد وقامة قام ولأمة لأم ولبجة لبج ولاذة لاذ ومحالة محال ومرسة مرس وتقيلة تقيل وذيلة ذيل وشيعة وشيع ووصيلة وصيل وما يصعب استقصاؤه .

٢٦ ـ يصاغ اسم الآلة من الثلاثى على (فعال) بكسر الفاء قياساً نحو : الازار والاسار أى القد الذى يؤسر به والاساء والاصار والاطار والبزال والبساط والجبارة والجهاز والحزام والخباء والخزانة والخطام والخياط والدعام والدثار والدهان والذراع والرباط والرحالة والركاب والزمام والزناق والستار والسجاف والسوار والسواك والشراع والشراك والشكال والشناق والصدار والضبارة والمعضاد والعكام والعلاقة والعماد والفضال والفكاك والقراب والقران والقماط والعفاص والقناع والغلاف والقياد والكساء والكمام والكعام والكنانة واللباس واللفاع واللجام واللحاف والنظام والنياط والوشاح وغيرها .

٢٧ ـ يصاغ مصدر الفعل الثلاثى الأجوف على (فيعولة) منقاساً مثل : بان بينونة وبات بيتوتة وحاد حيدودة وذاع ذيعوعة وشاع شيعوعة ودان دينونة وغاب غيبوبة وصيرورة وفيظوظة وفيلولة وعيلولة وقيلولة وحيلولة وديمومة وفيضوضة وقيمومة وميلولة وهيموعة وسيدودة وميجوحة وخيمومة وما يصعب عده .

٢٨ ـ يجوز إضمار الواو فى جمع التكسير وجعلها ضمة كما جوزوا إشباع الكسرة حتى تصير

ياء ؛ فالأول مثل : برج بروج برج وجرم جروم جرم ورهن رهون رهن وا سد أسود أسد ومسل مسول مسل ووثن وثون وثن وسقف سقوف سقف وسحل سحول سحل ونجد نجود نجد ونصف نصوف نصف ونقش نقوش نقش وشهم شهوم شهم ونمر نمور نمر وعل وعول وعل ووهم وهوم وهم وشرس شروس شرس، أما إشباع الكسرة فمنصوص عليه فى كتب القوم .

٢٩ - يجوز إلحاق (فعول) بالهاء لتحقيق التأنيث عند خوف الالتباس نحو : جسور جسورة وعجوز وعجوزة وكسول وكسولة ونؤوم نؤومة وحنون حنونة وعروس وعروسة وعدو أعدوة لتعادل أكولة وركوبة وحلوبة وحمولة وغبوقة وقعودة وقتوبة وقبولة ومصوخة وهذه ما بين مفعولة وفاعلة .

هذا ما انتهى إليه ذهننا وبادر إليه علمنا، ولعلنا بل عسى أن نعود إلى هذا البحث مع فرصة أخرى، والله المسدد للنجاح الموفق للفلاح ؟

(بغداد) مصطفى جواد

مؤلفاتك!

هل تريد ذيوعها؟

مطبوعاتك!

هل تود اتقانها؟

مجلة المعرفة!

هل راقتك نظافتها ؟

إن شئت : ضبط المواعيد ، ودقة التصحيح ، ونظافة الطبع

فاقصد مطبعة المعرفة

فهى كفيلة بتحقيق ذلك كله

نظريات فى نشأة التطور الاخلاقى

وكيف أن الصعوبات تكون الافراد وأخلاقهم

للمربية الفضلى : السيدة نظلة الحكيم

ملاحظة : هـذا المقال مقتطف من محاضرة ألقيت على الجمهور؛ وقد عالجت فيها الموضوع بطريقة عملية تمشياً مع روح التربية الحديثة ، فما تناولته من البحث فى نشأة التطور الاخلاق لم يكن فى حد ذاته العامل الأساسى الذى حملنى على التفكير فى هذه الناحية، وإنما أساس تفكيرى فى هذا الموضوع قائم على مشاهداتى للتصرفات العملية لبعض الأفراد، ممن واجهوا كثيراً من عقبات الحياة ؛ ولقد لفت نظرى، بصفة خاصة فى البلاد الأوربية، نوع من معاملة الأمهات لأولادهن : ذلك أنى شاهدت فى بعض الأسرات أن الأم تختص بعطفها وحنانها ومساعدتها المادية ابنا واحداً أو بنتاً واحدة من بناتها ، وتهمل الآخرين إهمالا ظاهراً.

ولعل « مارى تريزا » أفضل مثال يخلده التاريخ لهذه الفئة من الأمهات، فانها قد تحيزت لبنت من بناتها إلى حد كبير، حتى أن الزائر لمعرض الأشياء التى كانت تستعملها، والذى يقام عادة بمدينة فينا، قد يجد لهذه البنت من التحف القيمة الشىء الكثير، مما هو أكثر شبهاً بتحف الملكة نفسها ، ولكنه قلما يعثر على شىء خاص بباقى بناتها .

ولكنى لاحظت أن النتيجة النهائية هى فوز مهضومى الحقوق ، لأنهم يأخذون على عاتقهم مسئولية حياتهم، ويندمجون فى سلك الحياة العملية، فيكشفون من أسرار الفن وأخلاق الناس ما يسلكون به السبيل السوى فى العمل والمعاملات.

لقد تبينت أن الذين يتحملون كثيراً من متاعب الحياة، يكونون فى الواقع أنفع من غيرهم ممن وجدوا كل شىء معداً لهم فحصلوا عليه بدون عناء ؛ وأرى أيضاً أن المجاهدين فى الحياة أمتن الناس أخلاقاً ، حتى اليائس منهم أفضله على غيره ممن تشجعوا فى الحياة، لا بفضلهم، بل بفضل ماوجدوه معداً لهم.

وأبناء الشقاء هم أيضاً أصحاب الخبرة وأولو التفكير الدقيق، ومن لا تفكير له لا حياة له، إلاهم إلا حياة حيوانية ، والذى يحيا حياة حيوانية فهو أقل انتفاعاً بخيرات العالم من غيره، بل هو عالة على المجتمع الذى يعيش فيه . وفى نظرى أن الفرد الذى لا يستفيد من ميزته العقلية لهو أقل فائدة من دواب الحمل التى نستخدمها فى شتى الأعمال .

والآن أحاول أن أرسم صورة لحضرات القراء أصور بها الأنسان المفكر العامل، وإلى جانبه الانسان العالة، الذى لايتساوى حتى بدواب الحمل فى القيمة.

اعتاد الناس رسم خطوط بيانية للحرارة وغيرها، حتى انهم وضعوا مقاييس للذكاء، ولم يتعرض أحد لعمل أى رسم بيانى للتطور الاخلاقى، فلنفرض أن الشكل الآتى يدلنا على بعض النسب المطلوبة :

مستوى الكمال المطلق

مستوى الكمال الانسانى

مجال التطور للانسان العامل ٨

مجال التطور للانسان العاطل

المستوى الحيوانى ٧

الآن دعونا ننظر إلى العالم كما صورته لنا العقول المفكرة التى أخذنا عنها كثيراً من مادتنا العلمية، ولكن وجهتنا دائما الانتفاع بجميع ماوصلت إليه نهائيا مدارس الفكر على اختلاف نزعاتها، لأنى لاأريد أن أشهر حربا على جماعة المفكرين، بل أؤكد لحضراتكم أنه مامن شىء يؤلمنى أكثر من ذلك الخلاف الذى يحصل عادة بين كبار العلماء، فيندفع كل منهم إلى الاستئثار بمباحثه ووجهة نظره وقد يعادى غيره، ولذلك تبع المفكرون طريقتين غير منتجتين :

١ ـ إما التغاضى عن نتائج مباحث الغير فى أية ناحية من نواحى العلم، فكان من نتائج ذلك تثبيط عزائم ذوى الهمم.

٢ ـ أو أنهم اتبعوا طرق النقد المرة بل القذف، ليدللوا على أن ما أورده فلان أو غيره إنما هو مجرد سخف؛ ولكن على الرغم من ذلك كله فقد وصل العالم أخيراً إلى مرتبة عرف بها أنه من الضرورى إيجاد حلقات الاتصال بين مختلف النظريات، وهذه كانت من أكثر الخطوات سداداً، وأسعدها من حيث التقدم الخلقى فى العالم؛ فان العناية ببحث وفحص نظريات الغير كانت أكبر العوامل التى ساعدت على احترام آراء الغير وتقدير جهودهم، ولذلك نرى أنه كلما ارتقت الأمم، كانت الخصومة بين أفرادها دفاعا عن مبدأ لا للمشاحنات الشخصية. والحقيقة أنا إذا عرضنا أطوار الكائنات وانتقالها من طور إلى طور، وجدنا أنه من الممكن أن يكون فى

المملكة الانسانية العالم المجد، والمفكر العظيم، عضداً لغيره من الأفراد الذين ساء حظهم فحادوا عن طريق الصواب، متأثرين إما بطبيعتهم فى حد ذاتها أو بعقول غيرهم؛ وقد يحيد المرء عما يعد صوابا فى زمنه لشذوذ فى طبيعته، هو فى الحقيقة معذور فيه، وهو فى هذه الحال يستحق عطف الغير ممن من الله عليهم بطبيعة هادئة سهلة .

أما من جهة التأثر بنتائج عقول الغير، فان الكثيرين يخطئون فى اتخاذ نتائج أفكار غيرهم وتطبيقها على أحوالهم الخاصة، ناسين أن ما يكون طعمة سائغة لأحد يكون سما زعافاً لغيره، أو كما يقول الانجليز: (One man's meat is another's poison)

وقبل أن أعرض أطوار نشوء الكائن أقول : إن الحياة عبارة عن مغالبة بين قوى الانسان وقوى الطبيعة الممثلة فى عوامل بيئته ، فعلى مبدأ بقاء الأصلح تتلاشى ضعاف الكائنات ولا يبقى إلا الكائن الذى تساعده قواه ومميزاته الطبيعية على الاستمرار فى حياته.

وكيف يكون ذلك ؟ وكيف يكون استمراره فى حياته ؟

من الوجهة البيولوجية مؤيدة : فانه بنظرية التطور يمكننا أن نفسر أو نترجم حياة الكائن بما يأتى :ـ

الكائن فى أدنى أو أحط مراتبه هو مجموعة خلايا كمن فيها العامل الحيوى واستقر، وتولدت فيه نزعة إلى النمو، هذا إذا صادفه الجو المناسب لايقاظ هذا العامل الحيوى، والأمثلة هنا كثيرة وقريبة من العقل، فمثلا : حبة القمح بها عاملها الحيوى؛ فاذا وضعت فى التربة المناسبة نمت حسب طبيعتها ، وكذلك الحال بالنسبة للجنين فى أية بيضة ، فانه إذا وجد الجو المناسب له أخذ العامل الحيوى الذى تقوم عليه طبيعته فى الاستيقاظ تدريجاً حتى يستكمل نموه على حسب ما تتطلبه حياته، ولا يمكن للكائن من أى نوع أن يستمر فى نموه بدون تعدد فى خلاياه ، وتعدد الخلايا هذا يتبع قانونا خاصا يختلف باختلاف نوع الكائن؛ وعليه فتعدد خلاياه لا بد أن يكون مصحوباً بحفظ النوعية ، فالقطة لا تنمو لتصير قرداً ، ولا شجرة التفاح تنمو لتصير رنجيا فى الحديقة ؛ ومعنى ذلك أن من هذه الخلايا المتعددة تتكون وتتميز فى الكائن أجزاء أو أعضاء رئيسية ، وهذه الأجزاء تقوم تدريجاً بوظائف متناسبة مع ما تتطلبه حياة كل جزء فى ذاته وبمفرده، وكذلك لابد من أن تتناسب مع مصلحة جسم الكائن بصفة عامة، وإلا تعرقل نمو الكائن ولا يستطيع الاستمرار فى حياته .

وعلى ذلك نرى أن استمرار الكائن فى حياته ونجاحه يتوقفان على ما يبذله كل عضو من المجهود فى قيامه بوظيفته .

وعلى هذا الاعتبار تنحصر حياة الأعضاء فى هذه الرياضة العملية الفرضية ؛ وما الكائن فى الجملة إلا مجموعة من الأعضاء .

وقد قمت باجراء تجارب فى انجلترا وفى فرنسا لمعرفة مقدار تأثير عوامل البيئة، مما دل على أن لكل كائن عدوا إذا صح سميناه «صعوبة»، ففى اجتياز هذه الصعوبة يكون فوزه وارتياحه، وفى عدم اجتيازها يكون شقاؤه فموته ثم تلاشيه.

أجرينا تجارب على دودة القز وغيرها من الكائنات التى تتميز بأدوار معينة فى تاريخ حياتها، كما أجرينا تجارب على النبات والانسان؛ أما فى حالة دودة القز وما يماثلها فانا لما وضعنا بعض العناصر المضرة بحياتها، وهى فى طور البيض، أتلفت الكثير منها، وذلك لأن درجة السبات أو النوم فى البيض، بحكم المرحلة التى قطعها الجنين، أكبر منها فى مرحلة أعلى - مرحلة الدودة مثلا، أو مرحلتها بعد نسج الشرنقة؛ فلما وضعنا العناصر المضادة لحياتها قريبا منها حولت (الدودة) والفراشة وجهتها، وفعلا انتقلت من مكانها لأنها شعرت بشىء مضاد لطبيعتها واستقرت فى مكانها الجديد ولم تبرحه حتى أتى موعد خروجها كفراشة. ومباحث النبات أيضاً دلتنا على أن النبات له من القدرة ما يستطيع به تتبع الأشياء التى تساعده على حياته.

أما المباحث التى قمت بها فى بحث أحوال الانسان فقد قمت بها فى فرنسا مع عالم فرنسى؛ وكان جل غرض هذا الرجل أن يتحقق من النظرية الفرمنية أو الهورمية كما سماها «ماكدوجل» وهى النظرية القائلة بان طبيعة الكائن توصله إلى غرضه، وهو أن يحيا على حسب قوانين طبيعته.

وقد توصلنا إلى أن كثيراً من الحوادث التى تطرأ على صحة الجنين الانسانى وحياته ترجع إلى ما يؤثر عليه ويستثير فيه شعور الراحة والطمأنينة أو العكس.

وبناء على ذلك استنتجنا أن بذور الشعور بالسرور أو الألم تحصل فى حالة أولية فطرية منذ نشأة الكائن من أى نوع كان.

وعليه فخلاصة النظرية أنه إذا نجح الكائن فى التغلب على صعوبات بيئة، واستثمر ما بها من عوامل لمصلحته، كان له بطبيعته شىء من الفوز فى ميدان جهاده، وهذا الفوز يدعو إلى ارتياحه فيتنبه فيه ما نسميه شعور «السرور» بصفة أوضح كلما تقدم فى رقيه.

وهنا لا بأس من الاشارة إلى نظرية فسيولوجية نفسية تنبه اليها قديما «أرسطوطاليس» حيث قال: «إن السرور حليف النشاط المنتج، وترجمها بعض الانجليز إلى: Pleasure is the accompaniment of successful activity ومعنى ذلك أن المجهود الذى يعود بنتيجة مفيدة ومرضية يكون مشفوعا بشعور مريح تنشأ عنه فى مرحلة أرقى قوة التميز فالشعور بالسرور. وهذه النظرية تجمع بين مبدأين طرقهما أيضا بعض علماء الأخلاق من قدماء اليونان وغيرهم، وهما مبدأ المنفعة ومبدأ السرور، إلا أنهم تغالوا فى النظرية بجعلهم السرور أساس كل عمل حتى بعد استكمال العقل، وطبعا اخطأوا فى زعمهم هذا، لأن شعور الارتياح فى مبدأ حياة أى كائن إنما هو ضرورى على حسب طبيعته، وهذا الشعور فى عناصر الكائن (أو فى طبيعته الأساسية) خلافه

بعد أن يصبح الأنسان مسيراً حسب تفكيره الخاص،أو متأثرا بنتائج أفكار غيره وبما تتطلبه التقاليد السائدة والعرف المتداول .

إنما أريد أن أقول: إن المباحث العلمية دلت على أن الكائن متى نجح فى جهوده فانه يحيا حسب قوانين طبيعته ووظيفته،ولذلك قد استند جوزيف بتلر J · Butler (أحد مصلحى الانجليز) فى بحوثه الاخلاقية،فقرر أن أحسن عيشة يعيشها الانسان هى تلك التى يعيش فيها على حسب ما تتطلبه طبيعته،وهذا لا يكون إلا بارضاء طبيعة الانسان وإعطائها حقها ؛ ومن ذلك كان استمرار التضارب بين طبيعة البشر ومطالب التقاليد والعرف؛وضرر التقاليد هنا هو بعينه ما أشرت إليه من تأثير عقول الغير، لأن التقاليد هى تراث العقول السابقة،وهى قلما تناسب ظروف القوم فى الأزمنة الحاضرة . قال الامام على كرم الله وجهه: « لا تقصروا أولادكم على أخلاقكم فقد خلقوا لزمان غير زمانكم » .

إذن: فالوسيلة الوحيدة، التى يجب تطلبها ، لرقى الانسان هى أن يعمل قوى الفكر ويستغل ما وهبته الطبيعة من قوى ؛ والكائن متى نجح فى جهوده الجسمية والعقلية ليحيا الحياة التى تناسب طبيعته ووظيفته ، كان ذلك مدعاة إلى انتقاله من طور إلى آخر أعلى منه ،بل كان ذلك باعثا الى ايقاظ قوى شعوره وبذلك يبدأ فى مرتبة نمو يميز فيها ما يتناسب مع طبيعته ، وتكون نتيجته شعور ارتياح، وما لا يتناسب مع طبيعته وتكون نتيجته قلقا وعدم ارتياح؛ وفى الحالة الأخيرة ترشده قوة التميز إلى تحويل وجهته إلى ما يساعده على نموه وارتقائه النوعى؛وهنا نجد السبيل ممهدا لقبول نظرية الانتخاب الطبيعى والذى يتفرع منه فى مرتبة أرقى الانتخاب الجنسى: فالانتخاب الطبيعى معظمه عار عن التفكير،بينما الانتخاب الجنسى يكون فيه العقل قد استكمل شيئاً من وحدته الذاتية؛ فالانتخاب الطبيعى هو المرحلة التحضيرية التى تمهد السبيل لمرحلة التميز،ومرحلة التميز هذه،أى التى تكون بين الاشياء أولا والاشخاص ثانيا، هى التى تضع الحجر الأساسى لعملية الطموح أو مرتبة النظر إلى المثل الأعلى الذى نستمد منه مبادئنا السامية ونسترشد به فى اتخاذ أصلح الوسائل .

ومعنى ذلك أن الكائن فى اطواره الأولى تكون قواه العقلية عبارة عن خاصة كامنة يظهر تأثيرها بطريقة تدريجية بطيئة،وقد دلت البحوث العلمية فى علم وظائف الاعضاء وعلم الحياة على أن قوة العقل تنمو نسبيا بنمو قوة تماسك الخلايا والأعصاب المخية، ولذلك كان الطفل الصغير فى قواه العقلية أقل منه فى الراشد أو الرجل ، ماعدا الحالات الشاذة طبعا،فالولد الامريكى الذى استكمل رجولته فى سن السابعة شاذ لامحالة .

وهنا يجب أن نسلم بأن المرتبة التى تبزغ فيها شمس العقل هى مبدأ المرحلة التى يصبح الانسان فيها يتميز بعملية التفكير وما يتبعها من شعور بالألم أو الارتياح عن الاخفاق أو النجاح .

ومن أثر المرحلة التى يقطعها الكائن على هذا النمط تنشأ فى الجسم فضيلة المثابرة على الكفاح والمقاومة .

(وقد كانت ، ولا تزال ، بعض الأمهات فى قبائل الاسكيمو تضع طفلها خارج الكوخ الثلجى ليلة كاملة عقب ولادته ، فاذا عاش حتى الصباح أقبلت عليه الأم فرحة واعتنت بأمره لأنها تثق عندئذ بأنه سيكون رجلا ذا مناعة ومقاومة ، وأنه سيستطيع التغلب على صعاب الحياة ، وإذا وجدته ميتا فانها تسر أيضا حيث ترتاح من وجود فرد ضعيف لا يستطيع حماية نفسه ، وسيكون بلا محالة عالة على غيره) .

هذه هى النزعة التى توجد بالفطرة عند من يشعرون بعظم مسؤولية الحياة ، قد علمتهم الطبيعة درسا أخلاقيا ، وحملتهم على التفكير فى أمر من سيكون عالة على غيره من افراد المجتمع .

من ذا الذى يظن أن هذه المدنية الفطرية أقل من مدنيتنا وقد قصرت مدنيتنا العظيمة (بالوهم) وسعة افكارنا عن اعطائنا هذا الدرس الاخلاقى ؟

لننظر إلى أعمال الحكومة وتصرف الرؤساء فى أى بلد ، كم من منصب ذى مرتب ضخم أسند لمن ليست عندهم خبرة ولا مقدرة فكانت النتيجة أن ساءت الحال من جميع الوجوه وضاعت الأخلاق ، واختل نظام العمل ، وشعر العالم المجد بحيف أودى به إلى اليأس ، وأصبحنا لا نعرف بعضنا البعض بألقاب الكفاءة فى العمل ؛ وإنما بألقاب أخرى حديثة (كالمستر أو اللورد كذا أو المسيو فلان أو الباشا علان أو محسوب الرئيس كذا والمضطهد من حزب كذا أو فلان واسطته فلان الخ)

ألا فلنعمل على محو هذه الألقاب ، ولتكن عند كل منا الشجاعة الأدبية ، فيقاوم هذا التيار المرذول الذى أودى بمجهود الأفراد العاملين ، وأسقط مستوى الأخلاق إلى حد بليغ .

ما الأمة إلا بأفرادها ، وما الأفراد إلا بأعمالهم ، وما الأخلاق إلا ثمار الخبرة والعمل الشريف المكتسب عن جدارة واستحقاق .

إنما الأمم الأخلاق مابقيت ... فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وسنتناول فى فرصة أخرى الكلام على ماوقفت عليه من نظريات فى هذا الموضوع الجليل ؟

نظلة الحكيم

الى حضرات المشتركين

ترجو الادارة حضرات المشتركين الذين لم يسددوا قيمة اشتراكاتهم أن يبادروا بارسالها رأساً إلى إدارة المجلة ولهم الشكر ؟

التصاهر بين الشعوب

للاستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية وعلم النفس بكلية أصول الدين

بعض علماء الاجتماع لا يقول بوجوب اختيار الزوج فقط، بل يذهب أبعد من ذلك ويقول بوجوب التصاهر بين الشعوب المختلفة بدون تعصب للوطنية، ولم يقولوا بذلك إلا بعد التجارب المختلفة التى عملوها على النباتات والحيوانات، فظهر لهم أن الاختيار الصناعى يؤدى إلى تحسين النباتات والأزهار والفواكه، فلم يروا بأساً من تطبيق النتائج التى وصلوا إليها على النوع الانسانى، وليس هناك من مجال يتسع للقيام بتلك التجارب أفسح من أمريكا حيث توجد عناصر مختلفة تحدث بينها مصاهرة. وقد قال لوثر بيربانك العالم الأمريكى الاجتماعى فى كتابه المسمى « تربية النبات الانسانى »: « إن مقدرة الرجال يمكن تنميتها وإدخال التحسين عليها بالطرق التى اتبعت فى تحسين النباتات والحيوانات ».

وليست هذه الفكرة وليدة اليوم، فان أفلاطون لاحظ أن كرام الخيل وأعلى فصائل الكلاب إذا اتبعت فى تربيتها طريقة الاختيار الصناعى تحسن أنواعها وتنجب نسلا أقوى وأجود نوعا من نسلها لو لم يحصل ذلك الاختيار، وقد وضع فى كتابه الخالد المسمى (الجمهورية) قوانين يتوصل بها إلى ترقية النوع الانسانى، وهذه القوانين تقتضى التدخل فى الزواج وضبط شؤونه.

ولكن هذه التجارب التى أجريت على الحيوانات والنباتات فى الاسطبلات وفى الحقول لا يمكن إجراؤها على أفراد النوع الانسانى بنجاح تام، وذلك لوجود صعوبات كثيرة أهمها:—

١ — إن حياة النبات والحيوان بسيطة ساذجة عمادها الاعمال العكسية والفرزية، فمن السهل جدا التحكم فيها، ومن الممكن تكييفها بالطرق التى يرى المجربون سدادها، أما حياة الانسان فمعقدة، عمادها الأعمال الارادية، وميول الانسان ورغباته لا تكاد تحصى، فمن المتعذر إن لم يكن من المستحيل، أن يحصل المربون على رجال ونساء يستسلمون لاجراء التجارب عليهم وهم ساكنون لا يبدون حراكا، والمجربون إن نجحوا فى إيجاد عدد ما، فانهم لن ينجحوا فى التحكم فى جميع أفراد النوع الانسانى كما يريدون.

٢ — إن المربين للنبات والحيوان لكى يتمكنوا من تحسين انواعها وإبقاء الصالح منها فقط، فلا بد لهم أن يقضوا على حجر الصالح كيلا يكون حجر عثرة فى سبيل تحسين غيره ،ولكى يتسنى للمربين التفرغ للافراد الصالحة والعناية بتحسينها.

ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك بالنسبة للانسان،إذ أن المصلحين الاجتماعيين لم يجرؤوا بعد على أن يقولوا بوجوب القضاء على غير الصالح من أفراد النوع الانسانى، وإننا إذا كنا نسمع من يقول بوجوب عمل ذلك مساعدة للطبيعة،ومراعاة لقانون النشوء الذى يقضى بفناء غير الصالح وبقاء الأصلح فى تنازع البقاء، إلا أن هذه الفكرة لم تخرج حتى الآن إلى حيز الفعل .

بل إننا نجد الجمعيات الانسانية تؤلف لحماية الضعفاء وإصلاح شأنهم والعناية بغير الصالح من أفراد النوع الانسانى .

٣ — إن شعور الانسان يأبى عليه أن يعامل معاملة الحيوان الأعجم، وأن يوضع موضع النبات الذى تنقصه الحياة الكاملة ويعوزه الحس والشعور التام؛ وكيف يرضى الانسان بالقضاء على حريته وتحديد حركاته وسكناته ؟ على أن شعوره فى انه تحت التجربة،وأنها تجرى عليه فى وقت معين مما يكفى لفساد التجربة، وربما يؤدى إلى عكس المطلوب.

٤ — إن القوانين الاخلاقية والاجتماعية تختلف باختلاف الزمان والمكان، فما يكون مباحا الآن قد لا يكون كذلك فى عصر آخر، وقد لا يتفق الناس فى كل زمان ومكان على المبادىء التى تتبع فى اختيار الزوجين؛وما يعتقده الجيل الحاضر مثلا أعلى للانسان الكامل قد لا يروق فى نظر الأجيال الآتية .

ولكن على الرغم من هذه الاعتراضات، نرى أنه من الممكن زوال جميع هذه الصعوبات إذا ترك الاختيار للفرد يتصرف فيه بعقله وضميره لمصلحة نسله ولصالح النوع الانسانى .

فلا يصح للعاقل أن يعير هذه الصعوبات التفاتا جديا، فيتراخى فى امر اختيار زوجه على حسب ماذكرنا .

والخلاصة أن جمهور العلماء لا يرون مانعا مطلقا من أن يجروا على الانسان مثل تلك التجارب التى أجروها على النبات والحيوان، متبعين فى ذلك طرقا تلائم منزلة الانسان وتناسب مركزه فى الحياة، فانه مهما علت منزلته ومهما بلغ فضله فهو لا يزال يعتبر حلقة من الحلقات الحيوانية،ولذا نراه يتأثر بقوانين الوراثة مثلها .

على أن علو منزلته وتقدمه على غيره من الحيوانات يمكن أن يتخذ حجة عليه لا له، إذ انها تحتم عليه أن ينتفع بتلك القوانين بقدر ما يمكنه، وأن يتعلم دروسا مفيدة من الطبيعة التى أرادخالقها أن تخضع لقوانين متحدة .

فالانسان الذى هو الحيوان الوحيد الذى يكافح الطبيعة ويواصل الخطوات فى سبيل التغلب

عليها بوسائل مدبرة، ويتسلط على غيره من الكائنات فيستخدمها لمصلحته ويصلح من شأنها لمنفعته، يجدر به أن يتدخل فى شؤون نفسه لاصلاح نسله وتقويم نوعه، وإن أكبر وسيلة لذلك هى (التدخل فى الزواج وضبط شؤونه) كما يقول افلاطون.

٣ - الوراثة والقانون :(١)

ويرى المفكرون أنه من الواجب أن ينظم القانون الأمور الزوجية فيحرم الزواج على من ليسوا أهلا له، وذلك بفحص من يريد الزواج فحصا طبيا، وإعطاء الصالح شهادة تخول له التزوج.

وهناك فريق يعارض هذه الفكرة، ويستدل على بطلانها بأنها تؤدى حتما إلى شلل فى حركة الزواج، وإلى قلة النسل وانتشار الدعارة، ولكن هذه المضار إذا وقعت بالفعل ليست بشىء بالنسبة لما ينجم عن تنظيم الأمور الزوجية من الفوائد الجليلة.

أما مشكلة الضعفاء جسما أو عقلا، الذين يحرمون من الزواج، فسنعرض لها لمناسبة أخرى.

٤ - تحريض القادرين على الزواج :

لاشك فى أن الزواج واجب اجتماعى يقصد منه بقاء النوع الانسانى، بل انه ضرورة اجتماعية تدعو إليه الطبيعة البشرية ويميل اليه الانسان بفطرته، ولكنه يكون أوجب على من اكتملت فيهم شروط الزواج، أى على الخالين من صفات الضعف الوراثية، السليمين من بعض العيوب: كاضطراب الأعصاب الناشىء عن إدمان السكر أو عن خلل فى المجموعة العصبية، ومثل مظاهر العته والجنون وضعف العقل.

ولا ينبغى أن يكون الزوجان صغيرين فى السن لم يبلغا حد النضوج الجسمى والعقلى، ولا كبيرين أدركهما الوهن والضعف، وفاتهما عهد الحيوية الجسمية والعقلية.

هذا وقد لاحظ علماء الاجتماع مع الأسف الشديد حقائق تدعو الى القلق على مستقبل النوع الانسانى، وحصلوا على معلومات خطيرة، وشاهدوا مشاهدات محسوسة لو تكررت وسارت فى طريقها لأدت إلى « انتحار النوع ».

وأهم تلك الحقائق أن عدد المواليد بين الأسرات الضعيفة غير الصالحة فى كثير من الممالك الاوربية، أكثر بكثير من نسبة عدد المواليد بين الأسرات القوية الصالحة للانتاج.

وهذه حقيقة مشاهدة فى مجتمعنا المصرى أيضاً، فنحن نرى أن كثيرا من الأقوياء القادرين يحجمون عن الزواج، أو لايرغبون فى النسل، أو يصابون بالعقم، هذا مع كون الضعفاء الفقراء يتناسلون ويكثر عدد نسلهم، فنرى بذلك أن قانون (دارون) قد انعكس، فبدلا من أن « تنازع البقاء » يؤدى إلى « بقاء الاصلح » وفناء غيره، نرى أن النظام الاجتماعى الحاضر مؤسس على قوانين صناعية تؤدى إلى بقاء العناصر الفاسدة وكثرة عددها، بينما العناصر الصالحة تلتهمها

(١) راجع ج ١٠ و ١١ من هذه المجلة.

الحروب أو تذهب ضحيــة العمل والجهاد الفكرى، بالاضافة إلى أنها دائما عرضة لتعدى العناصر الفاسدة عليها .

هذه ظاهرة لانزاع فيها، وإذا استمرت قرونا فانها تؤدى إلى القضاء على العناصر الصـالحة، ولـكى نتلافى هذا الخطر، نوجه إلى تلك العناصر الصالحة موعظة حسنة ونصيحة قديمة قويمة نصبح بها قادة الديانات السامية أممهم وأتباعهم وهى : «تناكحوا تـكثروا» أو « زيدوا عددا واملئوا الأرض » .

وربما تقول هذه نصيحة مقبولة، ومن المعقول أن يعمل بها الصالحون للزواج القادرون عليه، ولـكن ماذا نفعل بغيرهم؟

وللاجابة عن هذا السؤال نقول: إن هذه مشكلة عويصة من المشاكل الاجتماعية التى قتلها علمـاء الاجتماع بحثا وذهبوا فيها مذاهب شتى، فمنهم من يقول بتحسين أحوال هؤلاء بقدر ما يمكن، بأن تخصص لهم خطط خاصة يسكنونها، ثم تحسن بيئاتهم ويعالجوا معالجة طبية واجتماعية وهكذا .

ومنهم من يقول بمنعهم من الزواج مطلقا، لاسيما المصابين منهم بأمراض تناسلية أو عقلية مزمنة ، ولـكيلا يكون هناك مجال للشك فى أمرهم ، يرى هذا الفريق أنه من الواجب تعقيمهم وجعلهم غير قادرين على الانتاج .

ومن العلماء من يقول بوجوب بترهم ليتخلص جسم النوع الانسانى منهم، فهم بمثابة الجراثيم التى هى مصدر الأوبئة، والتى يجب التخلص منها بكل الوسائل الممكنة .

وجمهور العلماء لايرون هذا الرأى الأخير لمخالفته للانسانية، ويفضلون الرأى الأول لأن تحسين حال الضعفاء يؤدى بالضرورة إلى تحسين حال الأقوياء .

وهناك أمور يفترضونها لتحسين أحوال الضعفاء أهمها : —

١ـ تحسين البيئة: ببناء المنازل الصحية وإنشاء الحدائق، وتسهيل وسائل التموين، والحصول على المياه والاضاءة الـكافية ، والعناية بشؤون التربية وإصلاح طرقها .

٢ـ أن يتزوج الشخص الذى يرى فى نفسه ضعفا ما فى ناحية يرغب فيها، بامرأة تكون قوية فى تلك الناحية، وإن كانت ضعيفة فى نواح أخرى، فالرجل الذى يأنس من نفسه اضطرابا فى الأعصاب مثلا يجدر به أن يقترن بسيدة تـكون أعصابها قوية، ذلك لأن قوة الأم تذهب بضعف الأب، فيأتى النسل بريئا من هذا العيب. أما الشخصان المصابان بعاهات متماثلة فننصح لهما بعدم الاقتران كيلا ينجبا أولادا مصابين بهذه العاهات ، ولا يمكن للتربية علاجها اللهم إلا فى أحوال نادرة حيث يمكن العلاج بعمليات جراحية .

٣ـ المهاجرة من بيئة إلى أخرى: لأن الانسان لا يمكنه أن يسبر غور قواه النفسية، ولا يمكنه

أن يتعرف أسرار مداركه، فمن الممكن أن ما خفى من هذه القوى واستتر بين تلك المدارك فى بيئة من البيئات، يظهر فى أخرى أشد ملاءمة وأكثر مناسبة، وكم من رجال ساء حظهم وبلغ بهم الضعف مبلغه فى مكان، فلما تركوه وضربوا فى الأرض وانتقلوا إلى مكان آخر تحسنت أحوالهم، وتجددت قواهم، ونالوا شهرة واسعة، بعد أن كانوا خاملين فى موطنهم الأصلى، وهذا بالطبع، راجع إلى وجود مؤثرات مشجعة، وفرص جذابة فى البيئة الجديدة .

ومن هنا تظهر الفائدة من حث الناس على السفر والتنقل من مكان إلى آخر إذا ضاقت بهم سبل العيش فى أوطانهم أو أبصروا فى أنفسهم خمودا أو فى قواهم همودا .

ففى الأرض منأى للكريم عن الأذى   وفيها لمن رام العلى متقلب

***

وبعد، فلاحاجة بنا الآن للتعمق فى هذا البحث والاطناب فى الكلام على هذه المشكلة الاجتماعية فاننا بحمد الله وبفضل البقية الباقية من النفوذ الدينى لم نصب بكثير من تلك الأمراض الاجتماعية الكبرى التى تشكو منها الامم الأوروبية، وإن أشد ما نخشى حصوله فى المستقبل أن نصبح عبيداً للحضارة الزائفة ونقع فى حبائلها ونصير هدفا لتلك السهام السامة التى يصوبها الأجانب نحونا ونحو أبنائنا، وهم آمنون على انفسهم ماداموا يحتمون بنظام الامتيازات الوخيم العاقبة .

وإننا إن ننس ما فى هذا المجتمع الذى نعيش فيه من أغلاط وشرور، فاننا لن ننسى مما جلبته علينا الحضارة الأوربية أمرين هما: الدعارة المصرح بها، وانتشار المواد السامة المسماة بالمخدرات إلى هذا الحد المريع . واننا إذا لم نتلاف هذه الأخطار ونعجل بالدواء قبل استفحال الداء، ونعمل بالمثل القائل « منع وقوع الداء خير من علاجه » فاننا ولا محالة واقعون فيما وقع فيه غيرنا، فيكثر بيننا البله والمعتوهون وضعاف العقول والمصابون بالسل والصرع والأمراض السرية التناسلية، ولا يلبث هؤلاء أن يتناسلوا وينموا وينقلوا أمراضهم إلى أضعاف عددهم بالوراثة أو بالعدوى الاجتماعية، فيملئوا الأرض أمراضا بعد ماقربت أن تملأ ضلالا وفساداً .

فعلى كل من لديه حمية قومية وغيرة وطنية، أن يكافح هذه السموم ويصارع هذه الجرائم بكل ماله من قوة ونفوذ وحزم، فأنى أعتقد تمام الاعتقاد انه كما أن الناس يفسدون الناس كذلك تمكنهم أن يصلحوا انفسهم، ويصلحوا غيرهم متى وجدت عندهم العزيمة الصادقة واتبعوا الطرق الموصلة إلى الغرض المطلوب ؟

حامد عبد القادر

مذكرات خاصة

(٣) تجاريبي في الحيـــــاة (*)

بقلم الاستاذ أسعد لطفى

جدت فى فترة العطلة السنوية أمور لا يسعنى تركها لأن فيها من العظات والعبر الكثير، فقد حدث أن كان فى أول شهورها ـ وهو شهر رجب ـ مولد السيد البدوى المعروف بالرجبية، وفيه معرض كبير للمعاملات والأخلاق والعبادات، وفيه مآس وفواجع ومهازل، وفيه عظات وعبر.

فى أمثال هذا المولد ترسم الصور الحقيقية للأمة فى المعاملات، فقد يؤم أمكنة الموالد خلق كثير يستعدون لأيامها ويقترون على أنفسهم لجمع المال اللازم وإنفاقه فيها، فتروج بعض السلع كصنفى الحمص والحلوى، وترفع الرذيلة أعلامها، وتبدو فى أقبح صورها، وتنتشر الامراض والأوبئة، وتنتقل الى القرى والبلاد وتكثر جرائم النشل والسرقة والاعتداء على الاعراض، وينتفع المرابون بانتهاز الفرص لاقتناص الأغرار الجهلاء، وترتفع اسعار الخمور والمخدرات والمغيبات. كل هذا واقع على رأس العامة السذج، وليس هناك من ينصحهم أو يفكر فى مصيرهم أو يغار على الدين، وقد ارتكبوا كل ذلك على عقيدة أنهم فى موسم من مواسمه؛ والأدهى والأمر أن تنصب السرادقات وترفع الأعلام وتحوطها عناية الأمن العام بمسايرة المواكب، وفيه يقوم فريق من رجال يتسمون باسم الدين، ويمثلون أدوار الذكر بالخلاعة والرقص على الأنغام، وبجوارهم رجال لو أنهم أدوا واجبهم وغضبوا لدينهم لانتشلوا اسمه الكريم من بين معتقداتهم وتصرفاتهم.

كان لهذه الموالد اثرها الحميد لو أن القائمين بها نهجوا على منوال القادة الحكماء، وأعدوا سير أصحابها وهم من أهل التقوى والمغفرة، وأحيوا ذكراهم بنشرها بعيدة عن التغالى، فأفهموا الناس حقيقة رجالهم، ودعوهم إلى تقليدهم والاقتداء بأعمالهم، وكان من الجميل النافع الحرص والغيرة على كرامة الدين، فاتخذت الحيطة الشديدة لمنع الموبقات والمنكرات والدعاية لمحاربتها بالقوة واللين والنصح والارشاد، وانتشال هؤلاء البسطاء الذين يفقدون أموالهم وعقائدهم وعافيتهم وصحتهم وأملاكهم، وتكون فرصة سانحة لهدايتهم وإرشادهم إلى الصراط السوى المستقيم.

وأعجب مارأيت ولازلت أذكره أنه بعد انقضاء المولد تكتب السعادة فى الدارين لمن ينال الحظوة بحمل مكنسة يتوجه بها إلى المقام الأحمدى ويعمل فى نظافة أرضه وغسلها بالماء، وقد

(*) راجع ج ٩ و ١١ من مجلة « المعرفة »

أصبت بسعال حاد كاد يودى بحياتى، لأنى قمت بمهمة الكنس فى أشد أيام القر، فأصابنى تصلب فى قدمى لولا عناية من الله أنقذتنى، وكتب لى الشفاء بعد علاج طويل. ولا تنس القربى والزلفى بنوالك قطعة من القماش الأخضر يمن عليك بها رجال الضريح مما يلف كمامة للمقام، لأن فيها سر ذلك الولى العظيم فتحملها تبركا بها واحتماء فى سرها وأملا فيما فيها من خير ونفع عظيم.

لست ممن ينكرون الولاية والأولياء، بل أعتقد فيما قرره الدين وأحترم نصوصه بشأنهم؛ ولكننى أذكر ماقلت بعد ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من علق تميمة فلا أتم الله له، ومن علق ودعة فلا ودع الله له » رواه أحمد والحاكم فى عقبة بن عامر رضى الله عنه. وقيل عن عقبة أيضا: إنه جاء فى ركب عشرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبايع تسعة وأمسك عن رجل منهم، فقالوا: «ماشأنه؟» فقال عليه الصلاة والسلام: «إن فى عضده تميمة» فقطع الرجل التميمة، فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «من علق فقد أشرك» رواه أحمد والحاكم. فماذا يقول السادة العلماء، وعلى مرأى ومسمع منهم يجرى كل ذلك وفى مقام كل ولى؟

أذكر ذلك ولا أنسى النذور، لأن لى منها حكاية لا أنساها؛ أما النذور فهى شرك بالله وإنكار لوجوده سبحانه وتعالى، إذ يتقدم من نذر نذره لذلك الولى إن قضيت حاجته وتمت مسألته، فعليه لسيده الشيخ كذا وكذا، مما ربما لا يكون فى طاقته أو ربما استنفد ماعنده أو ألجأه إلى الاقتراض؛ فهل بعد هذا عمل من أعمال الشياطين، لأنه اسراف وتبذير، وشرك وتضليل؟ والحزن والخجل أن توضع الصناديق المخصصة لذلك، وترضى وزارة الأوقاف باستغلال بساطة هؤلاء الجهال! وهل لم يكن من البر بذلك الولى أن تخصص هذه الوزارة واعظاً يعظ هؤلاء السذج أو يهديهم إلى دينهم، ويبين لهم ضلالهم؟ إن هذا ما يتجاهله القائمون بخدمة الضريح، إذ تدفعهم الأطماع إلى الاستزادة واستدرار مافى جيوب أصحاب النذور؛ وبهذا الضلال تدب الغيرة والحسد والحقد فى قلوب المتنافسين، فاللهم رحمة بعبادك واهدهم إلى صراطك المستقيم.

أما حكايتى مع أصحاب النذور فهى: فى يوم من أيام شهر رمضان، وأنا ابن سبع سنوات، كنت أسير فى الطريق وإذا بجاموسة هائجة يجرى وراءها خلق كثير، فلم تشفق على، وهجمت بقرنيها ورفعتنى بأحدهما ثم ألقتنى على الأرض، ولطف بى ربى إذ أزعجها ضجيج الناس، فتابعت سيرها وتركتنى بين الحياة والموت، وقد تداركنى لطف من الله ونجوت من شرها بعد عذاب وعلاج طويل؛ وهذه الجاموسة كانت نذراً للسيد البدوى فاهتمت صاحبتها بأمرها وكرمتها، فحرمت تشغيلها واستبقتها طوال العام ترعى دون أن تعمل شيئاً، وحجبتها فى دارها حتى حان وقت تقديم النذور فأحضرتها معها إلى البندر فأهاجها مالم تتعوده من حركة وضوضاء فثارت ثائرتها، وقد حزنت صاحبتها اعتقاداً بغضب السيد عليها وعدم قبوله لنذرها

فعاهدته على أخرى غيرها، وهذه تذبحها فى عامها، ومازلت أذكر تلك الحادثة كلما زرت السيد البدوى.

انقضت أيام المولد بسلام، وبقى بعدها جيش من الذباب احتل المدينة، وضيف من الأوبئة تفشى فيها، وأثر من الضلال لا يمحوه التكفير عنه.

وقد أتحفنا صهر عمى (بحب العزيز وحمص السيد) واشتدت عنايته بنا فألبسنا (الطرطور) يوم الخليفة، وهذه منة ونعمة طالما تحدث للناس بها؛ وقد أنعم الله عليه إذ رزق ابنته زوجة عمى بفتاة كانت سابعة من ولدت، أما من سبقوها فكانوا قد ماتوا، فنظر إلى نظرة عطف وأشار على عمى بزواجها بى اعتقاداً أن هذا ربما أبقى عليها؛ وفعلا فتح الحساب، وتقيد مقدم الصداق مائتى جنيه من مال اليتيم القاصر أسعد.

وكنت أنتظر من وراء هذه المصاهرة معاملة جديدة، ولكنها كانت مأساة، فقد استخدمتنى « حماتى » زوجة عمى لمولودتها، وكانت تترقب عودتى من المدرسة لكى أحمل « زوجتى » وكأنها كلة حفظتها إذ كانت دائماً تقول: « ياأسعد احمل مراتك » وكان عيشى مراً إذا بكت، وعذابى شديداً إذا لم أسكتها، وشاء الله أن تعيش لأعيش تعساً بجوارها.

قلت إنها السابعة، ومن سبقها رحل إلى الابديه ضحية الجهل؛ إذ كان أول ما يودى بحياة هؤلاء الاطفال تحريم الماء عليهم طوال العام الاول، وذلك لأن والديهم مصابان بالزهرى وفى عرف القوم أن أول مرة يصل الماء إلى بشرتهم يظهر الطفح عليها ولو عولجا منه؛ ومن وراء هذه العناية المعكوسة الأحجبة التى ينوء بحملها الرجل، فقد كان لكل ولى أثره من حجاب أو تميمة، وفى بعضها شىء من الحديد والأقفال، لابعاد الشياطين ووضع الأغلال فى أعناقهم؛ ومما يزيد الطين بلة، الملابس الصوفية والقطنية التى يبليها على جسم الطفل استمرار بقائها عليه، وعدم السماح باستبدالها خشية الاصابة من البرد؛ والطامة الكبرى إذا مسه أى عارض فقد تستخدم معه كل شىء يوصف، فاذا فحصت أمعاءه أو معدته وجدتها قارورة ملئت بكل الأجزاء من حامض وحلو وحريف ومتبل؛ لهذا كله لا يلبث الاقليلا حتى يلقى الله شاكياً جهل أمه ومن حولها من النساء والمخرفين من الرجال.

كان لهذه المسكينة ولد جميل الخلقة، له عينان تبارك الله فى قدرته، فرمدتا وظهر فيهما الصديد، وحضرت عجوز أشفقت عليه ووصفت له روث الحمار وقت إبرازه، فسرعان ما أطيع أمرها ونفذت اشارتها فامتنع الصديد وقت العمل، وهموا باعادة الكرة فأوقفهم تكور العينين وانتفاخهما، فتشددت، قاتلها الله، فى تنفيذ قولها، وقد تم لها ما شاء القدر، وفى الصباح فقد الطفل باصرتيه، وكان الله رءوفا رحيما، فمات بعد حمى معوية فى زمن قريب.

أمد الله فى عمر « امرأتى » وخرجت بها مرة فى الطريق، وحملتها فوق ذراعى، وكانت بدينة، وأحجبتها كثيرة فسقطت منى، وجرح أنفها، وعبثاً حاولت تضميد الجرح فعدت أدراجى للبيت

وكانت ليلة ليلاء وكارثة دهماء، صبت فيها زوج عمى على جام غضبها مستفيضاً، فبت ليلى أقاسى الذل والعنت، ولم تشفع لى امرأتى عند أمها؛ والطامة الكبرى أن واحدا من أحجبتها ضاع فضاع صواب أمها وبدأت تهددنى بالجزاء الأوفى إذا لم أبحث عنه وأعيده، وعبثا حاولت الحصول عليه؛ وكانت جلسة جامعة منها ومن أمها وأبيها وزوجها يتدبرون الأمر إذ يخافون ضياع حياة ابنتهم بضياع هذه الذخيرة، وقد أنقذنى من مخالب التعذيب اهتداؤهم إلى الذهاب فى الغداة إلى الشيخ حسنين لعمل غيرها.

العقائد يا رجال الدين! فليس أضر عليها مما تسرب إليها من الجهل وانصراف العامة إلى كثير من الوثنيات، فقد وضعوا على رأس «زينب امرأتى» منديلا وطوقوا عنقها بآخر، وباتت طوال ليلتها مثقلة الغطاء ليصل عرقها إلى المنديلين، وفى الصباح حملتها على كتفى وسرت بها فى ركاب جدتها إلى دار الشيخ حسنين، وكم كانت بعيدة جداً، إذ كنت أحمل الفتاة طوال الطريق، ولم أستطع الاستراحة قليلا، ولم أتركها تمشى خوفاً عليها من الأرض ومن فى الأرض من الانس والجان، وفيهم أخوها منهم؛ وقد وصلنا إلى الشيخ حسنين، وبالسعادتنا التى سهل نوالها بدخول داره التى غصت بمئات النساء وكلهن يحملن أولادهن ووقفت بالباب عجوز شمطاء، الويل لمن يعصى لها أمراً؛ فلما رأتنا مقبلين هشت وبشت فى وجه جدة امرأتى، ثم أومأت إليها لتقرب منها وحملت منها الفتاة وقبلتها ثم قالت: (اسم الله عليك! ياسلام! ياست دى متزاره) هل وقعت على الأرض ؟؟؟ وكان الجرح ظاهراً فى أنفها، فأجابتها: نعم، أوقعها (المنجم ده) فقالت العجوز: (طمنى خاطرك، يظهر إنها حقيقة، وسيدنا قادر على شفائها، تفضلى ياسيدتى)؛ فناولتها قطعة فضية للشيخ وبعضاً من الدراهم فأفسحت لها مقعداً وأجلستها.

كانت ساعة مبكرة من النهار، وأذن مؤذن الصلاة للظهر، ومكثنا إلى أن حانت صلاة العصر ولم يسمح الشيخ بمقابلته لأحد، وذلك لأن قرينته من الجان، ومن العجيب أنك لم تكن تسمع صوتاً ولا همساً، ولم تكن هذه عادة النساء؛ ولكن اعتقادهن فى الشيخ وقدرته على الجزاء ألجمت ألسنتهن فقعدن ينتظرن الفرج القريب؛ وأخيراً، وقد قاربت الشمس على المغيب، وإذا بالاذن يصدر من فقيه، وبدأت المقابلات، فدخلت فى الدور الذى حدده، فرأيته شاباً لا يتجاوز الثلاثين من عمره، جميل الخلقة، صبوح الوجه، جالساً على مقعد وثير، يفوح العود والتدخين فى أرجاء غرفته، وكان متكئاً على وسادة من حرير؛ فلما دخلنا اعتدل قليلا وحملق فى وجه الصغيرة ثم قال لجدتها أعطنى (الأثر) فناولته المنديلين، وقد عقد على طرف كل واحد منهما قطعة فضية من ذات العشرين قرشاً، فتناول الأول وشم رائحته، ثم تظاهر بالغيبوبة قليلا وجعل يحدث نفسه كمن يهذى، وبعد قليل مسح وجهه بيده واتجه إلى الجدة وقال: لا تخافى، عمرها طويل، والواقعة سليمة؛ ثم مد يده بالمنديل الثانى ووضعه على أنفه وبدأ يسعل أو يتساعل، وبعد لأى

أعاد ما قاله وزاد عليه : خذى هـذا الحجاب، وضعى عليه شعرتين من رأس يتيم الأب والأم وقطعة من جلد قنفذ،وضعى قطعة من الخبز تحت رأس الطفلة ومعها قليل من الملح مدة الليل، وفى الصباح أطعمى الخبز لـكلب أسود،وضعى الملح مع قطعة من الجلد، ثم عودى بعد أسبوع؛ فخرجنا بالغنيمة وقدمضى طول النهار ولم أتذوق طعاماً،وعدنا إلى البيت فقابلنا من فيه بتشوق عظيم للوقوف على ماقرره الشيخ؛ وبعد أن قصت عليهم الجدة القصة اطمأنت الخواطر وهدأت النفوس وانتعشوا بحسن النتيجة ، أما أنا فقد أنهكنى التعب ومالت رأسى وأخذنى النعاس فبت ليلتى بمكانى بدون غطاء وعلى غير فراش حتى أيقظتنى شدة البرد وما أصابنى من جرائها حتى كاد البول ينساب منى على غير إرادة، ولم يكف هذا زوجة عمى، بل كان أول مالاقيته فى صباحى تعنيفى وتهديدى اذا ضاعت هذه النغمة الجديدة ؛ وسرعان ماقضينا الأسبوع وعدنا إلى الشيخ نحمل إليه هدية من الفطائر والحلوى ونجر له خروفاً حنيذاً ؛ ولايفوتنى أن أنبه سيدى القارىء إلى أن مولانا الشيخ حسنين تنازل وقبل منا الهدية وسلمها إلى فتاتين جميلتين تقومان بخدمته.

تمت هذه المأساة وعلق بذهنى أن عمى الذى كان فى أعماله مسلماً يؤدى فرائض الصلاة فى مواقيتها، وكان يعمل مااستطاع على اعتقاد أنه يؤدى واجبه ،كان موقناً ومعتقداً أن للشيخ حسنين فضلا كبيراً فى حياة ابنته، وكان لمجرد أى إشارة يقوم باجابة مايطلب له من الهدايا والعطايا، وكل هذه العائلة المسلمة كبيرة الايمان بمعرفة الغيب واستطاعة الشفاء من السقام، وكانت تقدس أوامره، وهذا كله باطل وشرك وضلال ، وعلى هذه الضلالة والزيغ فى العقيدة أغلب الناس، فأى شقاء وبلاء بعد هذا الضلال المبين ؟؟

انتهى مولد السيد البدوى، وجاءت ليلة نصف شعبان؛ فوجدت أطفالا منتشرين فى الشوارع والأزقة والطرقات ينادون جميعهم « دعاء نصف شعبان بمليم » فسارعت لشراء ورقة منها، وكنت سباقا إلى حفظ مافيها ، وماحانت ساعة الغروب حتى كنت بالمسجد وبيدى المصحف الشريف، ونفذت ماجاء بتلك الورقة من: تلاوة قرآن إلى صلاة ودعاء، وثابرت على هذه السنة حتى طالعت رسالة فقيد الاسلام المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش « الاسلام دين الفطرة » واهتديت إلى الحق وعلمت أن العبارات مع مافيها من تقديس وتسبيح، وجد فيها من الدخائل ما أخرجها عن القصد السامى الشريف، لأن ذلك الدعاء يقوم به العامة والجهلاء على عقيدة أنه مهما ارتكب المسلم من الذنوب والآثام، فانه بمجرد الدعاء يغفر له طوال عامه مااقترف، وقد يعود إلى فجوره وفسوقه فى عامه التالى على أن ينال الغفران بالدعاء ، والاسلام برىء من ذلك ويدعو إلى التقوى والاستقامة .

والحزن أن كل ذلك يجرى فى المساجد، وتحت سمع علماء الدين وبصرهم، وهم عن نصح الجهلاء معرضون ؟

أسعد لطفى حسن

اللغة العربية فى جاهليتها

كيف انتهت الى لغة القرآن

للاستاذ السباعى السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم العليا

اجتازت العربية فى جاهليتها ثلاثة أطوار: طور أول هو نشوءها على لسان العرب البائدة الذين هم أقرب الشعوب العربية إلى سام بن نوح لأنهم إلى ابنه إرم ينسبون، وطور ثان هو ما كان من اختلاط هذا الشعب الأول بسكان اليمن القدماء، اختلاطا جعل لغة كل فريق تؤثر فى أختها؛ ولكن يظهر أن الغلبة كانت للغة العرب البائدة على اليمنية القديمة، فصارت أوضح منها فى العربية الثانية، لما هو متفق عليه، من أن اليمنيين تعربوا على عهد يعرب بن قحطان، فعرفوا بالعرب المتعربة، ثم كان ما كان من انقراض العرب البائدة وبقاء العربية ممثلة على لسان القحطانيين وحدهم؛ أما الطور الثالث فهو ما كان من نشوء شعب عربى جديد حيث نزل إبراهيم وادى مكة على مقربة من جرهم القحطانية، فرفع قواعد البيت، ثم عاد تاركا هناك ولده إسماعيل الذى أصهر من تلك القبيلة، فكان له بنون نشأوا يتكلمون لغة جديدة، تأثروا فيها بلغة أبيهم وبلغة أمهم حتى إذا ما انحدر التناسل فى ذريته إلى ابنه عدنان، تم ظهور شعب آخر، هو الشعب العدنانى الذى عرف باسم العرب المستعربة، وبذلك كانت هناك لغتان: قحطانية فى الجنوب، وعدنانية فى الشمال؛ ولكن مهما قلنا فى التفرقة بين اللغتين، فلن تبلغ التفرقة جعل كل واحدة منها تامة الاستقلال عن الأخرى، لأن تكوين الثانية من الأولى يأبى هذا الاستقلال كما يحتم فى الوقت ذاته أن تكون الأولى أغلب على الثانية، عملا بتغلب الكثير على القليل، وكذلك مهما قلنا فى التقارب بينهما فلن يبلغ التقارب درجة الاتحاد، وبخاصة إذا علمنا أن معظم الشعوب القحطانية حين نشوء العدنانية كانوا بعيدين فى الجنوب عن الاختلاط بالعدنانيين فى الشمال، وعلى هذا كان هناك خلاف تناولته عوامل التهذيب بالتقريب والتوحيد، كما تناولت اللغة من ناحية أخرى بالترقية والتحسين حتى انتهت إلى لغة القرآن، وهو ما نتكلم فيه الآن.

عوامل التهذيب

يقصد بالتهذيب الذى حدث فى اللغة إذن حتى انتهت إلى لغة القرآن أمران: أحدهما السير بها فى طريق التحسين والترقى بمجهود كل قبيل على حدة، وبقطع النظر عن أن يتقرب فى ذلك

إلى لهجات غيره من القبائل الأخرى ، والثانى العمل على تقريب تلك اللهجات بعضها من بعض تقريبا ينتهى كما انتهى بما هو أشبه بالتوحيد؛ ولكل من هذين الأمرين عوامل هى المجتمعات الخاصة للأول والعامة للثانى، على أنه من الطبيعى أن تكون المجتمعات العامة مع اختصاصها بالتهذيب من ناحية التوحيد عاملة عليه أيضا من الناحية الأخرى، فماهى إذن تلكم المجتمعات ؟

المجتمعات الخاصة

كان للعرب مجتمعات خاصة كثيرة دفعتهم إليها أحوالهم، وشهدت بها ألفاظهم، وكلها كان يستدعى منهم أن يقولوا ويتكلموا، محاولين فى ذلك تجويد قولهم، وتحسين كلامهم ما أمدتهم القريحة وطاوعهم البيان، وفى هذا من العود على اللغة بالتقدم والترقى ما نريد أن نقول .

فمن تلك المجتمعات ما كان للمذاكرة والمشاورة فى تدارك حرب أو شب غارة ، وكان يقع غالبا فى قبة يضربها لهم من تكفل بأمرهم، فيجتمع فيها أهل الحل والعقد منهم، ثم تدور أقداح القول ويجرى النقاش فيه تأييدا أو نقضا حتى يصلوا إلى رأى يستقرون عليه ويعزمون العمل به ؛ ومن هنا نشأ مايذكرونه من الرأى المبيت وطلب الاقبال عليه، والرأى الفطير والتحذير منه .

ومنها ما كان للحكومة وفصل الدعاوى والمنازعات، فيستعد كل فريق للادلاء برأيه والدفاع عن وجهة نظره أمام حكم يرضونه ويذعنون لحكمه، وقد كان هؤلاء الحكام يختارون ممن عرفوا بحصافة الرأى وحضور البديهة وقوة البيان، حتى يكونوا قديرين على مناقشة الخصوم واستجلاء الحقيقة من هذه المعمعة الكلامية، التى يريد أن يخرج منها كل طرف فى الخصومة على خصمه فائزا منصوراً .

ومنها ما كان للتحالف والتعاقد على الدخول فى أمر أو الكف عن أمر، مما يتطلب من ذوى المكانة والزعامة قبل الدعوى إليه قولا وبيانا ، ومن السامعين مدافعة وحوارا ، حتى تستقر الأشياء فى أنصبتها، وتطمئن النفوس إلى الايمان بها؛ ومن ذلك حلف المطيبين حين أراد بنو عبد مناف أن يأخذوا من بنى عمهم عبد الدار ما أعطاهم إياه أبوهما قصى بن كلاب من أمور البيت، فأبوا عليهم ، وكاد يقع الشر لولا هذا الحلف الذى قسم تلك الأمور بينهما، وإنما سمى بذلك لأنهم غمسوا أيديهم حين عقده فى طيب مسحوا به الكعبة توكيدا له وتوثيقا، وكثيرا ما كان يقع التحالف إذا تسافه أفراد القبيلة تسافها يقتحم الحد ويتهجم على العرف، فيهب أشرافها يدعون إلى التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر، ويتعاقدون عليه كما فعلت قريش فى حلف الفضول على يدى العباس بن عبد المطلب، وسفيان بن حرب، ورسول الله يومئذ ابن خمس عشرة، وهو الحلف الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو دعى إليه فى الاسلام لأجبت »

ومنها ماكان للعظة والاعتبار، فما خلاقبيل من ذى بصيرة نافذة وقس طاهرة يجتمعون إليه بعض أيامهم لاستماع مافيه ترغيب أو ترهيب كما توحى عقائدهم وتهدى فطرهم، ومن هذا النوع مايقال من اجتماع قريش حول كعب بن لؤى الجد السابع لرسول الله، كل يوم عروبة، يعظهم ويذكرهم، وأنه لذلك سمى يوم الجمعة، كما أنه لذلك أيضا لسبقه يومى السبت لليهود والأحد للنصارى، اختاره الاسلام بعد، فجعل صلاة الجمعة فيه .

ومنها ماكان إذا خلوا من مشاغلهم لمحض الأنس وترويح النفس: بذكر ماسلف من الحروب والوقائع، وقص مامضى من السير والأخبار، وتناشد ماحلا من الشعر والقريض، إلى غير ذلك مما تنشرح له الصدور، وتنتعش به الأفئدة؛ وكان هذا النوع من المجتمعات لايقع عادة إلا ليلا، ولذا سمى حديثه بالمسامرة والسمر، وهما فى اللغة حديث الليل، وكانت عادتهم فيه أن يتحلقوا وفى وسطهم من ينتهى إليه أمرهم، وكثيرا ماكان يتحمس المتكلم منهم إذا أراد ذكر قصص غريب أو حادث عجيب، فينهض لالقائه واقفاً كما يفعل الخطيب .

فهذه المجتمعات الخاصة قطعت فى تهذيب اللغة بالمعنى الأول شوطا بعيدا، ولها أسست الأندية، ومن أقدمها دار الندوة التى أسسها قصى بن كلاب، فكانت تجتمع فيها قريش للأمور السالفة ليلا ونهارا، ومن ثم سمى مجمعا، على أن الاجتماع بها لم يقتصر على تلك الأمور، بل تعداها إلى غيرها: كالأملاك والأعذار، فكان يقع من الكلام مايلائم الموضوع، ومن الخطب مايناسب المقام .

المجتمعات العامة

أما المجتمعات العامة فنعنى بها ماأدى الاجتماع فيها إلى الاختلاط بين قبيلتين أو أكثر، أيا كان الدافع إلى هذا الاختلاط، ونقصد منها أكثر مانقصد إلى العمل على التقارب والتوحيد بين لغات القبائل، وبخاصة يمن ومضر، وإن كانت تؤدى مع هذا إلى ماسبق ذكره من رقى اللغة وجودتها؛ وقبل أن نتكلم على عواملها، وهما قريش والأسواق، لابد لنا من القول بأن العامل الأساسى لها قبل هذين كان اختلاط القحطانية بالعدنانية، حيث غادرت كثرتها اليمن فى القديم: لسيل العرم، أو للعيش، أو لغيرهما من أى شىء تشاء، فملأت من الجزيرة العربية وسطها وشمالها، ومابعد من أطرافها، وبذلك كان تخالط وكان امتزاج ذهبت به الفوارق اللغوية الجسيمة بحكم الطبيعة وعلى توالى الأيام، ثم كان ماسنذكره عن قريش والاسواق، فضعف كل الضعف مابقى من فارق أو كاد .

قريش

«إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا» رفع إبراهيم قواعده وابنه إسماعيل، فأقاما أركانه وأتما بنيانه، وتقبل الله دعاءهما الذى حكاه سبحانه عنهما « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من

البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» فكان بيتا محجوجا يقصده العرب من كل مكان قصى، ويأتون إليه من كل فج عميق، يطوفون به ويقضون مناسكهم فيه؛ ولقد كانت أفئدتهم تهوى إليه استجابة لدعاء نبيه وخليله حيث يقول: « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

فما زال هذا البيت محل وفادة لجميع العرب من لدن إسماعيل، حتى جاءت قريش فكانوا اجيرته الأدنين، يقيمون حوله ويقومون بسدانته، توفيرا لراحة زائريه، وعملا على إرضاء قاصديه، يستمعون جميع لهجات العرب إذا: دعوا ولبوا، أو تضرعوا و توسلوا، وإذا أرادوا أمرا أو قصدوا شيئاً فلا يزالون موسم الحج على طوله؛ وإذا لم يك حج كان اعتمار، ينقلون إلى لغتهم مايستحسنون من ألفاظ وعبارات، وينقل الوافدون إليهم عنهم إذا قفلوا أكثر مما ينقلون هم، فينشرونه فى أرجاء الجزيرة ونواحيها وهكذا دواليك؛ بقيت قريش أداة أخذ وإعطاء تعمل بمجهود جبار على التوحيد والتهذيب، حتى تهذبت عبارتها، وترقى أسلوبها، واتسعت لغتها، فصارت أوفى بتأدية المراد من غيرها، وأصبحت لهجة مكة، وهى حاضرة العرب وبلدة قريش، أوضح اللهجات بيانا وأعذبها أسلوبا وأخفها منطقا وأوسعها فهما، شأن اللهجات فى حواضر المدن وقواعد الممالك، تجد لها من الحلاوة والطلاوة مالا تجده لغيرها فى سائر مدنها وجميع قراها.

ثم لم تك قريش محل وفادة فحسب، بل كانت بحكم عملها التجارى لاتزال تقطع بلاد العرب برحلة الشتاء والصيف إلى اليمن جنوبا والشام شمالا، فتغزو بهاتين الرحلتين وبغيرهما إلى غير هذين الاقليمين ما تصادف فى طريقها من خلاف، غزوا يكسر من حدته ويفل من غربه، فاذا هو خاضع مستكين، يتوارى ثم لايلبث أن يزول.

الاسواق

أما الأسواق فجمع سوق، وهى مجتمع الناس أصلا للبيع والشراء، وكانت للعرب أسواق عامة يبدءون التنقل اليها فى أوائل سنتهم بالشمال، ثم لايزالون يسيرون اليها شرقا فجنوبا حتى ينتهوا من سوق صنعاء بانتهاء رمضان، فتعمد جميع القبائل إلى الاستعداد خلال شوال للرحلة الى سوق عكاظ، فيعمرونها أول القعدة إلى عشرين منه، ثم يغادرونها إلى مجنة قرب مكة بقية القعدة، ومن مجنة يذهبون إلى ذى المجاز بجانب عرفة، لا بمنى كما قد يقال، ومنها يكون المنصرف إلى الموقف الأعظم بعرفات، وبالصدور منه ينفرط عقد الناس.

ولما كانت هذه الأسواق الثلاث قريبة المكان من مكة، والزمن من موسم الحج، كانت أعظم الأسواق جمعا لقبائل العرب المتباعدة مقاما ونسبا، وكل مجتمع كهذا لا يخلو، والناس يزحم بعضهم بعضا، من بادرة غضب أو سابقة قول، وما أسرع تجمع الناس والتفافهم حول المختلفين، فيرى كل

(البقية على الصفحة رقم ١٤٩٤)

مذاهب العلماء وحقيقة الوجود

للاستاذ أمين فهمى أحمد

ياحيرتا فى علوم … لم تكشف الحق بعد
قالوا: الطبيعة أصل … والأصل يرقى ويغدو
فى نشأة بعد أخرى … نجد يؤاتيه نجد
والذر فيه حياة … وبالحياة يمد
إلى تطور عهد … فيه الأناسى جند
والكل لم يك شيئاً … والأصل فى الناس قرد

* * *

غريزة العقل فيهم … مثل الغرائز تبدو
بقدر تكوين كل … والروح ليس تعد
سوى الحياة تباعاً … مع التحول غمد
فتارة فى زهور … أو فى البلابل تشدو
أو فى البحار وترب … أو فى الصخور تشد
أو فى الأثير تسامى … والجو ذر مرد
ولا فناء لدنيا … كانت وتبقى تصد
غوائل الفكر فيها … فلا مليك وعبد
يؤيد الرأى هذا … تلك «الغوريلا» ترد
على العقول بأنا … بدع ترق أشد

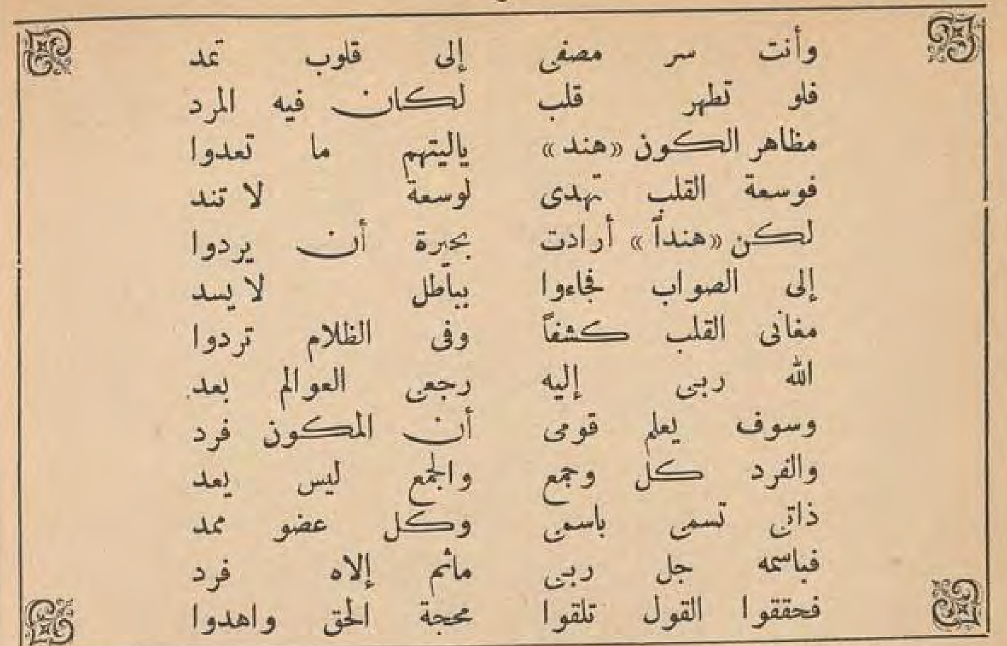
* * *

هذا فريق ومنهم … من قال بل نحن فرد
من كهرباء سراعا … تجرى وليس تحد
والروح أصل وجود … منه العوالم عمد
على نظام ونسق … من العلا تستمد
حياتها ، ثم تفنى … وللأله ترد
إلى حياة خلود … وذاك قول أسد

* * *

فان رجعت لدين … فيه الهداية رشد
أرى العقول قصاراً … والعلم ضلك « هند »
فأنت نور ونار … وأنت أرض ومهد
وأنت عقل وفكر … وفى السماء الممد
وأنت حرب وسلم … وما لحرب أعدوا



وأنت سر مصفى إلى قلوب تمد
فلو تطهر قلب لكان فيه المرد
مظاهر الكون «هند» ياليتهم ما تعدوا
فوسعة القلب تهدى لوسعة لا تند
لكن «هنداً» أرادت بحيرة أن يردوا
إلى الصواب فجاءوا بباطل لا يسد
مغانى القلب كشفاً وفى الظلام تردوا
الله ربى إليه رجعى العوالم بعد
وسوف يعلم قومى أن المكون فرد
والفرد كل وجمع والجمع ليس يعد
ذاتى تسمى باسمى وكل عضو ممد
فباسمه جل ربى ماثم إلاه فرد
فحققوا القول تلقوا محجة الحق واهدوا

(بقية المنشور على الصحيفة رقم ١٤٩٢)

اللغة العربية فى جاهليتها

من المتنازعين حوله من الخلطاء والبعداء مايطلق من لسانه ، ويثير من انفعاله،فيقول ويفخر والجموع مثار القول والفخر، ثم ينصرفان وفى نفس كليهما موضع لم يبلغه، فيعود هو أو أحد عشيرته إلى السوق من عامه القابل، وقد أعد قولا يرد به على منازعه ويتكمل به نقصا فاته.

هكذا بدأ الاتجار بالكلام فى الأسواق، وما زال آخذا فى الازدياد حتى كان خير بضاعة، أو هو البضاعة النافقة فى هذه الأسواق، وأخصها عكاظ، فقد اعتادت القبائل أن تعد للقول بهاعدته،وللفخار آيته،فيستمع المحكمون،وإذا هم يقدمون ويؤخرون،وفى هذا من الباعث على الروية فى القول والتخير للفظ، مارفع من صناعة الكلام، وجعل التروى من عادة الكثيرين ، وقد كانوا من قبل ينطقون دون سبق روية أو تفكير، وشتان مابين البديهة وإن وافقت الصواب، وسداد البصيرة وهدى التفكير .

وإذ كان الشعراء والخطباء، وكل ذى كلام ، يريد له سعة فهم وكثرة ذيوع ، ولا بد أن يريد، نقول إذا كانوا يريدون هـذا ويريدون لغة قريش أوفى اللغات به ، فقد انثنوا إليها جميعا يستوحون فصاحتها وبيانها، ويستمدون قوتها وسلطانها،حتى غطت على جميع اللهجات،فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى، والامام الذى بقوله يقتدى، عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد،فأخذوا يتقربون بلغاتهم اليها، وكانت الأسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب، حتى قارب توحيد اللهجات التمام، واستعد العرب لفهم القرآن الكريم، الذى نزل بلغة قريش، ومعرفة مواطن الاعجاز فيه، فلم يبق بعد نزوله إلا القليل من اللهجات، ثم لم تلبث أن قضى عليها القضاء الأخير ؟

السباعى السباعى بيومى

الحكم على كشاف!

للكاتب الروسى الشهير «بانتليمون رومانوف»
PANTELEIMON ROMANOV
تعريب : إيزاك موسى شموش

« لعل الأدب الروسى أقرب الآداب إلى البساطة ، وألصقها بالحياة ؛ فهو مثال صادق لما تزخر به النفس البشرية من عواطف وميول ، وصورة طبق الأصل لما يجرى لك ولى ، ولجميع الناس فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، وفى كل دقيقة ...

وإليك نموذجاً من هذا الأدب الحى ، الذى بلغ من الكمال غاية ما بعدها غاية . . . إليك قصة بسيطة ، لحادث بسيط ، يقوم له الكشافون ويقعدون، وأين!؟... فى روسيا بلاد الحب، والاباحية، والحرية المطلقة !!!

وإذا علمت أن الأدب الروسى من أرق الآداب الحية ، وأن واضع هذه الأقصوصة (بانتليمون رومانوف) من كتاب الطبقة الأولى فيه ، وأن « الحكم على كشاف » من أجمل ما كتب ، علمت أى أثر ننقله إلى قراء العربية »

(المعرب)

اكتشفت فرقة الكشافة ، فى إحدى قرى الملحقات اكتشافا مروعا: الشاب (اندريه تشوكونوف)، يسعى فى إفساد أخلاق إحدى رفيقاته (ماريا كولوبيف) فتولى المحققون البحث عن الجانى، لتطهير المجتمع من العناصر الفاسدة التى تسربت إليه من حيث لايشعر. وكان الشعب يذهب فى نقد أخلاق الشبيبة مذهبا يتدرج من الشديد إلى الأشد ، حتى انه لم يتردد فى الحكم على الناشئة ، بأنها أخذت تتدهور فى مهاوى الفساد ، بحيث أصبحت لا تعرف كيف تميز بين الخير والشر ؛ والحقيقة التى لا مراء فيها، أن هذا النقد يرمى الشبيبة بالجحود والالحاد ، والتمرد على الدين !!!

وقرر الكشافون، فى اجتماع عام عقدوه ، أن يتخذوا جميع التدابير اللازمة ، وإن بلغت منتهى القسوة والصرامة، لردع اندريه تشوكونوف وأمثاله عن هذه المفاسد ؛ ولا غرو

فالشاة الجرباء تعدى القطيع بأجمعه ... ولهذا بثوا العيون والأرصاد لمراقبة تشوكونوف مراقبة سرية دقيقة ، ومما زاد فى فظاعة جرمه ، أن ماريا فلاحة ، تقطن فى ضاحية لا تبعد عن القرية أكثر من كيلومتر واحد ، وما الذى يعتقده الفلاحون فى فرقة الكشافة إذا بلغهم هذا الحادث ؟ ؟ ...

وقد تحقق لديهم أنه كثيراً ما كان يتنزه برفقتها فى حديقة القرية ، ويرافقها إلى دارها بعد مضى شطر كبير من الليل ...

بدأ التحقيق يوم الخميس مساء ... وكان اندريه وماريا يتأخران عادة وفى مثل هذا اليوم من كل أسبوع ، فى ردهة النادى ... إذن فقد كان محتملا أن يرافقها عند عودتها إلى منزلها..

وفى هذا اليوم بلغ حماس الكشافين أقصاه حتى انهم لم يرفعوا أبصارهم عن اندريه وصديقته، وكان اندريه فى الخامسة عشرة ، لا يرى إلا وسترته على كتفه، وشعره الأشعث الجاف قد تشعث بصورة لا تلتزم جانباً واحداً من رأسه، بل تسترسل إلى جميع الجهات ، حتى إذا تضايق منها ، سرحها إلى الوراء بمشط صغير كان لا يفارق جيبه أبدا ؛ وكانت تغشى وجهه سحابة من الشحوب دائما ، وكانت البثور المنتثرة فيه ، تزداد يوماً فيوما . . . وكان يميل إلى الوحدة والانفراد، ولا يرى إلا منزويا فى طرف من أطراف الفناء ، يواظب على دروسه وهو يذرع الساحة بقدميه طولا وعرضاً.

أما ماريا فانها تبدو أكثر طهارة ، وأجلى براءة : هى فتاة هادئة ، مفكرة ، لما تتجاوز الربيع السادس عشر من حيـــاتها ، وكانت تربط شعرها برباط احمر ، وتلتفح (بلفعة) حمراء . . . إلا أنها بدلا من وضع مشط فى شعرها ، كانت تهز رأسها إلى الجهات الاربع ، لتصلح ما تشعث منه ، حتى إذا أعياها جمع تلك الشعور التى عبثت بها شفار المقص ، استعانت على ذلك بمشط ذى انحناء .

***

وفى مساء هذا الخميس ، بعد انتهاء العمل، تصنع اثنان من الكشافة (عهد اليهما بالتحقيق) البحث عن قبعتيهما ، منتظرين خروج تشوكونوف وماريا ؛ إلا أن الفرقة بأسرها ، كانت على أشد ما تكون من الرغبة ، للوقوف على ما يتناوله التحقيق ، فراحت جموعهم تتدافع أمام المدخل ، هامسة متسارة ، واشرأبت الأعناق تحاول أن تتطلع إلى البهو ، لترى ما يجرى فيه ... وفجأة ، أتى أحدهم بحركة تفيد « أنهما » يتأهبان للخروج ، فهرب الجميع مسرعين ، وأخذوا يتسابقون إلى الشارع تاركين الباب بين مفتوح ومغلق ... ليشاهدوا عن بعد ، ما يحدث فى ذلك المدخل ...

وظهر اندريه وماريا على عتبة الباب... وفى ذلك الظلام الشائب ، أبصروا اندريه يتقدم إلى الجسر الخشبى الملقى على طرف النهر ، ويمد يده ليساعد ماريا على اجتيازه ، فتمكنه من كتفها ، وتتكىء عليه ...

فزرر المحققان سترتيهما اللتين كان الهواء يتلاعب بهما ، وأخذا يشيعان هذين الشبحين المتباعدين بأبصارهما .

أما الكشافون ، فقد أثر فيهم هذا الجو المشبع بأنفاس التآمر والدس، ولم يشعروا بحاجة إلى الرقاد ،لأنهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر عودة المحققين ، ليقفوا منهما على نتيجة التحقيق.

جلس الشبان والشابات حول الطاولة ، وشرعوا يتجاذبون اطراف الحديث بصوت خافت، ويعمدون إلى الصمت كلما مر الرئيس بقربهم ، إذ لم يكن بينهم من يرغب فى اطلاعه على ما شاهدوه بأعينهم ؛ قبل أن ينتهى البحث ويتم التحقيق .

وفى الساعة الحادية عشر ... عاد المحققان فهرع اليهما الكشافون، وتقدمت اليهما جموعهم متسائلة : هل تحققت الظنون ؟؟

أما المحققان فقد انتبذا أحد اطراف الطاولة،وطفقا يلتهمان طعامهما صامتين !!!

وقد صرحا ، أنهما لن يقولا شيئاً قبيل يوم المحاكمة .

***

هنا صرخ أحد الرفاق قائلا: هل انتهيتما من تمثيل دور « الأحمق » ؟

فقال نيقولا كوشوكوف أحد زعماء الفرقة : كلا أيها الرفاق! لهما كل الحق في التزام جانب الصمت ،إذ ماداما قد عينا رسميا،يتحتم عليهما التكتم، وليس يستحسن أن يجيبا كلا منا على سيل اسئلته الجارف !

خفتت الاصوات ، والتف الكشافون فى حلقة حول المحققين ، بينما كانا يزدردان الطعام بجشع وشهية ... وراحوا ينتظرون بصبر فارغ قرار المحكمة التى ستلتئم يوم الاحد المقبل ، للنظر فى دعوى اندرية .

ومنذ الفجر هاج النادى ، هياج الخلية إذا أخذ منها العسل ، وإذا الكشافون تتدفق جموعهم ، وتتدافع فى كل جهة ، بدون عقل ، وبلا إدراك، يكاد يلتهمهم التأثر ويفقدهم صوابهم.

تناولوا الشاى جميعاً بسرعة ، ومن ثم راحوا يتسابقون إلى غرف النوم ليشرفوا منها على قاعة المحكمة .

ولما نودى على تشوكونوف — وهو لايعرف مايراد به — تطاولت اليه الاعناق ، واتجهت إليه الابصار، وكان رئيس المحكمة قد جلس وسائر الاعضاء إلى طاولة فى وسط القاعة .

نادى رئيس المحكمة : تشوكونوف ! فانتصب على رجليه واقفا ، من حيث لايشعر ، إلا أنه لم يلبث أن أحس بحمرة الخجل تلهب وجهه ، عندما جذبه رفيقه الجالس إلى يمينه ، من كمه ، ليجلسه ...

— الكشاف اندريه تشوكونوف متهم بافساد أخلاق رفيقته فى الفرقة : ماريا كولوييف .

فصرخ اندرية ووثب على مقعده وهو يقول: ماذا ؟ ثم راح يدير الطرف حوله ، ويهز كتفيه ، فقاطعه الرئيس باشارة من يده قائلا :

— سنسمع بعد برهة قصيرة ، كل ماتقدمه لنا من الادلة لتبرير موقفك! والتفت الرئيس إلى جهة النافذة ، حيث كان اللغط يشتد ، وترتفع جلبة الاحاديث الخاصة ، وصرخ بصوت مرتفع:

— أيها الرفاق! أطلب إليكم السكوت !

وكان تشوكونوف لايبرح جالساً وسترته على كتفه ، ويشاهد ما يجرى ويسمع مايقال ، ولكن ماذا يعنيه كل ذلك وأى علاقة له به ؟

قال الرئيس : اضطرتنا ملاحظات بعض الرفاق للتحقيق فى هذه القضية ، وقدجاءت المعلومات المستقاة تؤيد بصورة جازمة تلكم الملاحظات الفردية . . . والآن اسمحوا لى أن أسأل الرفيق تشوكونوف.

وشد الرئيس شعره براحة كفه ، وأخذ يفكر فى الاسئلة التى سيطرحها ثم قال :

— ولكن، كلا !...سأقرأ لكم فى بادىء الامر ما يتضمنه هذا التقرير الذى رفعه الرفيقان اللذان عينتهما الفرقة لمراقبة اعمال تشوكونوف ، إليكم نصه :

« فى الساعة العاشرة ، بعد اجتماع النادى ، ذهب الرفاق ليرتدوا معاطفهم وقبعاتهم ، فتصنعنا البحث عن قبعاتنا ، لنراقب عن كثب كل شيء ..

خرج تشوكونوف وماريا ، ولما همت بارتداء معطفها ، حمل لها جزدانها والحقيبة التى كانت تحملها لدارها ، وكانت مملوءة دقيقاً اشترته من الكوبيراتيف ...

رافقها إلى شمال المدرسة، ولما اجتازا الساقية، مد لها ذراعه فاتكأت عليه كما تتكىء الفتيات ، وطفقت تجتاز الاخشاب التى تكاد تشبه الجسر ... واستأنفا سيرهما ، ولم نستطع أن نقترب منهما اكثر من ذلك ، خشية أن يشعرا بنا ، ولهذا لم نتمكن من استراق ما كان يدور بينهما من الحديث ، إلا أنا نكاد نكون على يقين ، أنهما كانا يتحدثان عن الشعر، ولسنا ندرى إذا كان يحدثها عن شعره هو ، أم ينشدها لشعراء معروفين ... وحمل لها حقيبتها ، وتواريا عن انظارنا بين اشجار الغاب المتكاثف ، مدة ليست باليسيرة ، وتعذرت علينا مراقبتهما ، لاسيما وأن الظلام كان حالكا .. وبعد ذلك أبصرناها تستأنف سيرها وحدها ، ورأيناه يعود دون أن يشعر بنا ، ونحن بين الاعشاب مختبئون ! »

— أرأيتم أيها الرفاق ؟ القضية واضحة ! نحن هنا بصدد سيرة لا أخال الكشافة ستحمد عليها !!!

والتفت الرئيس إلى تشوكونوف قائلا :

— أتعترف بما جاء فى التقرير ؟ فقال تشوكونوف :

— بماذا تريدون أن أعترف ؟
— بما قرىء الآن ! هل جرى ماذكر على الصورة المبينة ؟
— أجل! على هذه الصورة تماما !!
— إذن أنت ساعدتها على اجتياز الساقية ، وحملت لها جزدانها ؟؟
— وحقيبتها ايضاً ؟
— وأنشدتها أبياتا لست أدرى لمن؟
فأجاب تشوكونوف وقد احمرت وجنتاه : هذا أمر لايعنى أحداً غيرى !
— كلا ! بل هذا امر يخص غيرك أيضاً ، لأنه يمس كرامة الفرقة بأسرها... فاذا كنت تقرض الشعر ، ولا تنشده للفرقة ، بل تنشده «لسيدتك» فهذا أمر ياصديقى لايخصك وحدك.. إذ لو شرعنا جميعاً ننظم الشعر ، ونتنزع اللفعات التى تقع إلى الارض (وهذا مافعلته انت) لا نكون أعددنا للمستقبل الفرقة العسكرية ، التى نريدها للقيام بالثورة ، وإعلان مبادئها... ليس هذا امراً يعنيك وحدك ، لأنك تفسد أخلاق رفيقة لنا !!!

علينا أن نعد للغد : جنودا بواسل ، مدربين ، متساويين فى الحقوق، أما انت فانك تحمل لها حقيبتها ، بدلا من أن تحملها هى بنفسها ! وتساعدها على عبور الساقية ، وتنشدها الاشعار ... حتى أنا منذ زمن غير يسير ، صرنا نسمع الناس يتسارون بقولهم : تمكن أبناء صغار التجار من الانخراط فى سلك الكشافة !!!

فصرخ تشوكونوف وقد أحفظته تلك الوصمة الشائنة : لست ابن تاجر صغير ! فأبى عامل ميكانيكى !!!

وراح الرئيس يمرر يده على شعره ، وهو يتفرس فى وجه تشوكونوف ، وبعد لأى ابتدره قائلا :

— وهذا مازيد عملك فساداً على فساد ، وعاراً على عار ... وبدلا من أن تسعى لتبرير موقفك ، قدمت لنا حجة جديدة ، عليك... لانك ابن عامل ميكانيكى شريف «يحب» إحدى رفيقاته فى الفرقة ؟؟؟

لئن كنت تريدها لاشباع شهواتك البهيمية ، فقد كان حقا عليك أن تصرح لها بذلك، بطريقة شريفة كرفيق لها ، لا أن تسعى لاغوائها برفع لفعتها الساقطة ، وحمل حقيبتها عنها ...!!

قال تشوكونوف ، وقد ألهب الغيظ جسمه : لست اريدها لاشباع مطامعى الجسدية ! ولئن رضيت كل شيء ، فانى لا أرضى ، ولا أرضى ، ولا أسمح لأحد أن يهين ...

فقاطعه أحد المحلفين بقوله :

ـ إذن كنت تريدها ، من أجل أى شيء ؟

ـ من اجل أى شيء ؟! وهل أعرف انا ذلك ؟ لا أريدها لشيء ... بل لأتحدث معها ...

ـ ولأجل ذلك هجرت جميع الرفاق ، ورحت تبغى الانفراد عنهم ؟

ـ انى لم انفرد عن الرفاق ، وانما أرغب أن أكون معها وحدى .

ـ بامكانك ان تختلى بها لاشباع شهواتك البشرية ، فانهذا أمر يعنيك وحدك ، لأنك لا تقطعها من الفرقة علىهذه الصورة ، ولكنك رحت تنمى فيها ميل ...

فأجاب تشوكونوف باحمرار زائد : ولكن .. إذا رغبت فى اطلاعى على دخيلةامرها ، وبثى شكواها ... وإذاكانت ترتاح إلى فتح قلبها لى ؟

ـ ماذا ! هل اصبحت مستودعا للاسرار ؟

ـ كلا لست مستودعاللاسرار ، ولكن ماريا يسرها أن تكاشفنى بمكنونات صدرها ،وأنا لا أستطيع إلا أن اجنح لذلك بشيء من الشفقة والتأثر ، ومنذ ذلك الوقت ...

ـ الصديقة المخلصة ، لا تتباكى امام احد ، وإذاكان ماتتذمر منه يستحق الذكر ، فعليها أن تسره إلى الفرقة .. أوليس يجمل بكما أن يكون أحدكما كزوج للآخر؟ اذ لو أجيز ذلك ، فاى ضرورة تبقى لتأليف الفرق ... اذهبوا اذن جميعكم وابحثوا لكم عن « حبيبات »

وهنا ضحك الجميع!

ـ ايها الرفاق! الوقائع واضحة جلية ، لا إبهام فيها ! والتهمة ثبتت أدق دقائقها : إن الرفيق تشوكونوف يتكلم بلسان لانعرفه ، ولهذا يتعذر علينا أن نتفاهم معه ، ان لم يك هذا التفاهم مستحيلا ! ومما يزيدنا أسفا أيها الرفاق أنه مثلنا ، ابن عامل ، وانه فى الوقت ذاته : عنصر من العناصر العاملة لافساد الاخلاق ، بينا الواجب يحتم عليه ، ان يكون مقاتلا ، وعضواً عاملا ، ومثالا يحتذى فى الفرقة ؛ والآن أطرح عليكم الأسئلة الاربعة التالية :

١ ـ هل ثبت لكم ، ان الكشاف تشوكونوف (من الفرقة الثانية) أفسد أخلاق رفيقته ماريا إفساداً تاماً ؟

٢ ـ هل ترتأون طرده من فرقة الكشافين ؟

٣ ـ هل تعد ماريا كولوبيف شريكته فى الجرم ؟

٤ ـ هل تستحسنون طردها أيضا ؟

عندئذ تفرقت الاصوات وتوزعت... إلا أن الأكثرية أجمعت على طلب التشديد فى الحكم، لردع المفسدين عن أعمالهم وقمع الفساد ، وإلا فانهم بدلامن أن يكونوا أعدواجنودا بواسل لاعلان الثورةوتنشيطها، يكونون أعدوا أزواجاتر اسلون بالمقطوعات الشعرية العذبة، ويتجاذبون أطراف الأحاديث الشهية ، وهكذا فان«الحب» يصير أشبه شيء (بالدين) أى أنه يصبح آلة قوية

لاضعاف العقل، وتثبيط الهمم، وإشغال الرفاق عن الثورة التى انضووا تحت لوائها... يحق لأحرار أبناء نبجان أن يفكروا فى الحب، وأن يقرضوا الشعر! أما نحن فلا، لأن حاجاتنا الطبيعية تكفينا! ولا شباعها لانذهب إلى بائعات اللذة، ولا نرتمى فى أحضان بنات الهوى، لأن لنا رفيقات !!!

وأجابت الاقلية، بأنهم إذا أخذوا بهذه الاراء، استأصلوا العواطف البشرية من شأفتها؛ وقضوا عليها القضاء المبرم، وزاد بعضهم على ذلك، أن لهم نفوسا، تتطلب ...

وإذا بأصوات الهزء والسخرية ترتفع وترتفع عاليا ومن بينها صوت يقول:

— أسمعهم يتحدثون عن النفس البشرية الآن !!! إنه لموضوع جليل! يالهم من أناس! قل لى أى «مشكا» هل لك أنت نفس؟

قال مشكا: إن نفوسهم لتتطلب الشعر !!

— يالهم من صعاليك، يالهم من «أوباش» !!

— خير لنا الف مرة أن نكون «أوباشا» من أن نكون عشاقا مدلهين!

فانتهرهم الرئيس باشارة من يده قائلا: سكوتا أيها الرفاق! وبعد أن انحنى إلى رفيقه الجالس إلى يمينه ليسمع ما كان يسره إليه من بعض القول، زاد على ماتقدم:

فلنصوت بهدوء ونظام!

***

فأجابت الاكثرية على السؤال الاول بالايجاب، وعارضت أقلية ضئيلة قضية الطرد.. وأما إجرام ماريا فقد أيدته الاغلبية ... ولكن الاصوات أجمعت على إبقائها فى الفرقة (!) على شريطة أن لاتدنس فى المستقبل راية الكشافة !!!

فنزع تشوكونوف عقدة رقبته (كرافتته) الحمراء، وهى علامة الكشافين ثم وضعها على الطاولة، وخرج من القاعة، وسترته ملقاة على اكتافه، فنهض على الأثر عشرة كشافين من مقاعدهم، وصرخوا فى وجه الحضور: «يالكم من أنذال! يالكم من أوباش!» وأسرعوا فى اللحاق بتشوكونوف.

وأخذ الرئيس عقدة الرقبة الحمراء، ورمى بها فى علبة الاقذار ثم قال:

— لقد ذهبوا الى حيث ...

حلب — ايزاك موسى شموش

غـــــوته

لمناسبة مرور مائة عام على وفاته

بقلم الاستاذ محمد يحي الهاشمي
مدرس اللغة العربية بجامعة برلين

غوته ، وهل علمت من هوغوته ؟ هو ذلك الشاعر وتلك العبقرية الخالدة ،هو ذلك الذى تحتفل بذكرى مائة عام على وفاته الأمة الالمانية بأسرها ، ومن الحق لتلك الشخصية أن تقام لها هذه الذكرى؛ لذلك رأيت من واجبي أن أبث هذه الذكرى الى قراء «المعرفة».

ملك غوته على مشاعرى يوم قرأت كتابه المسمى القبضة (فاوست) ، ذلك الكتاب الذى استهوى ألباب الخافقين ، فوجدت فيه من لطيف المعانى ورقة الأسلوب ما أخذ بمجامع قلبي. والسبب فى تأثير كلماته التأثير العظيم ، أنه لم يكن شاعرا فحسب ، يكتب ما يشعر به فى حينه ، بل كان شاعراً يكتب بعد أن يدقق ويغوض فى عمق الحقيقة، وهذه الصفات- صفات الشعور بعد التدقيق العميق-تكاد لاتجدها فى غيره من الشعراء ، ولذلك جاءت كلماته بليغة،وحكمته عميقة، وتأثيره قويا ، فاذا بالغت الامة الالمانية فى الاحتفال بهذا الشاعر الكبير فى شهر مارس من هذه السنة، فلاشك أنها تود أن ترفع هذه المنارة المضيئة إلى مكانة عالية،لتكون لهم مثلا أعلى فى الحياة.

عرفت غوته من ثلاث وجوه: عرفته كشاعر غربى حر التفكير ،يغرد مع الطيور ،ويبتسم للطبيعة، يلج فى قلب تلك الفتاة التى رأت خيبة فى الحياة فقعدت منكوبة حزينة ، يلعب مع الاطفال ، يدخل الى عروش الملوك ، يزور قاعات الاحتفالات العريقة، ثم يخرج إلى فضاء الطبيعة ، ينظر إلى لمعان النجم فى السماء ، وإلى ضياء القمر الفضى، يتجول فى الغابات الكثيفة ، ويستريح فى سفح جبل على ضفة نهر ، ينظر إلى لون الأزهار اليانعة ، ونظرته إلى الزهر ليست كنظرة الذى يشم الزهرة ثم يرميها ويمشى فى سبيله ،يذهب إلى الاعياد ، وكل مايراه يترك فى نفسه أثرا شعريا، فاسمع شيئا من أنشودته فى نزهة عيد الفصح : (١)

نظر الربيع إلى الجليد فذابا	ومشى يبشر بالربيع هضابا
وكذا الشتاء الشيخ سار بجيشه	نحو الجبال ليطمئن مآبا
الشمس تأنف أن ترى من غيرها	نورا لذلك كل ثلج ذابا
ارجع بطرفك من مكانك ناظرا	نحو المدينة منظرا خلابا
تتزاحم الاقدام فى ابوابها الظلـ	ـماء ترغب أن تجوز البابا
ومن المدينة قضها وقضيضها	بعثوا بحيون الضيا أسرابا
انظر الى تلك الجموع تسنمت	بين المروج وفى الحقول شعابا

(١) من ترجمة الدكتور محمد ابى غنيمة.

ومن القرى إنى لأسمع ضجة   يبدو بها فرح القرى جذابا
أنا هاهنا (إنسان) فى أمنيتى   وهنا أحب إقامتى احقابا

ومهما رأى من شقاء الحياة وعذابها، فانه يبقى سعيدا مغتبطا ، ولقد أدرك ماهية الألم ووصفه بقلمه وصفا صادقا، قلما يصفه لنا غيره من الكتاب ؛ ولكننا نجده بعد ذلك مبتسما ، فدوما تجده يرقص للحياة يترنم بأناشيد الحب والشباب .

عرفته كمستشرق اطلع على آداب الشرق من عربية وفارسية ، فنطق بالشعر عنها فى ديوانه الشهير بالديوان الشرقى والغربى ، وسبب تسميته ديوانه بذلك، لأنه يود أن يظهر مشاعر غربى عن الشعر الشرقى ، وكان ينظر الى الشعر الشرقى كمثل أعلى لا يمكن الوصول اليه، ووجد هذا الشاعر فى الادب الشرقى قوة منعشة جديدة ، كما رأى أن أساسات الاسلام توافق كل مزاج حيث يقول :

« من الحمق أن يتعصب المرء لرأيه، إذا كان الاسلام هو التسليم لله، فبالاسلام نحيا ونعيش كلنا » وقد قال عن القرآن ، «سوف يبقى تأثير هذا الكتاب خالدا » ، وبعد أن اطلع على العالمين وجد صحة ذلك القول ـ رب المشرق ورب المغرب ـ فأنشد يقول :

« إله الشرق ، إله الغرب ، أقطار الشمال ، أقطار الجنوب، تسكن تحت يديه بسلام»

وقد أصبح صدى جمال اللغات الشرقية عظيما بتأثيره، إلى أن صارت يضرب بها المثل .

عرفته كبحاثة فى الطبيعة، ولم أعرف شخصا آخر فى الغرب على شاكلته ، أراد والده أن يدرس الحقوق فزار الجامعة لهذا الغرض، فلم ينجح؛ ولكنه درس شتى العلوم وتوغل فيها حسب زمانه ، درس الحكمة الطبيعية وخاصه انعكاسات النور ، وله نظريات خاصة فى الألوان لاتزال حتى يومنا هذا مجال بحث بين العلماء ؛ لقد رأى غوته أن الحياة الظاهرية تتجلى أمامنا بالالوان، فاللون عنده يؤثر على الحواس والمشاعر ، وضرب لذلك مثلا: إذا أردنا أن نعرف تأثير لون من الألوان على حساسيتنا يجب أن نلون حجرة بذلك اللون ونمكث فيها ، فنرى بذلك تأثير كل لون على حدة، وبهذا خالف غوته نظرية نيوتون الانكليزى بقوله: إن اللون مادة أثيرية قائمة بذاتها غير متعلقة بالنور ، فى الوقت الذى يعتقد نيوتون أن اللون ناشىء عن تحليل النور ، ولقد جمع غوته كل ما يتعلق فى هذا الباب من المواد العلمية القديمة والحديثة وتوغل فى آراء اليونان ، ومر مرورا سطحيا على نظريات العرب (١) وكان يعتقد أن كل شيء فى الحياة يجب أن يكون موجبا أو سالبا، وكذلك الالوان .

وقد لعبت نظرية الالوان فى اوروبا بعده دورا عظيما ، فاشتغل البحاثة بروغش باشا فى استنباط نظرية الالوان عن قدماء المصريين؛ ولكن بحثه لم يكن تاما، والمتحف المصرى فى برلين يسعى جهده فى أن يتمم هذا الفرع .

بحث غوته فى مختلف العلوم الطبيعية ،فبحث فى النباتات وأنواعها وتراكيبها وجميع افعالها

---

(١) من أشهر المشتغلين فى نظريات الالوان والنور من العرب : الفيلسوف والطبيب ابن الهيثم المتوفى عام ٤٣٠هـ .

الحياتية وفصائلها، درس الاحجار وتراكيبها وعلة حدوثها، وتوغل بعد ذلك فى فن طبقات الارض، فدرس الجبال والهضاب والزلازل والبراكين، واكتشف حجرا جديدا بعد اكتشاف خواصه لايزال حتى يومنا هذا يسمى على اسمه (غوتيت)؛ راقب الحوادث الطبيعية مراقبة صادقة، فكان يريد أن ينفذ إلى الحقيقة نفوذاً عميقا، وقد أراد أن يدرس أيضا فن الكيمياء لتكون عنده إحاطة فى ماهية المادة؛ ولم يكن فن الكيمياء يدرس فى عهده على حدة، بل كان يدرس مع الطب والعلوم الطبيعية. ولم ينظر هذا المدقق الى ما عرفه الاقدمون من فن الكيمياء كأساطير الاولين، بل كان يريد أن يعرف الحقيقة فى كل شيء، وكذلك درس الانسان، فقد كان يعتقد أنه لفهم ماهية الانسان يجب فهم تركيب جسمه قبل كل شيء، لأننا لايمكننا أن نفهم الشيء المعنوى قبل أن نفهم المادة التى تنبيء عن ذلك المعنى العظيم، فدرس تركيب جسم الانسان من الهيكل العظمى إلى تركيب العضلات والاعصاب، وأنفق فى ذلك الكثير من التضحية؛ ولكنه ظل فى تتبعاته العلمية شاعرا لا مثيل له بين العلماء ... يفتح العلماء أدمغتهم ليفهموا العالم وينظموا وينسقوا ويروا العلة والمعلول؛ ولكنهم يغلقون قلوبهم، يعتقد غوته بأن الانسان اذا أراد أن يمشى على العقل الصرف يصل فى النهاية إلى اللاشيء؛ وانتقد العلماء فى كتابه فاوست بقوله:

« وبذلك أعرف السادة العلماء، أن الشيء الذى لايلمسونه يبعد عنهم أميالا، والشيء الذى لا يفهمونه يغيب عنهم تماما، والذى لايستطيعون أن يحسبوه يزعمون أنه غير موجود، وما لا يستطيعون وزنه يظنون أن لاوزن له، والعملة التى لم يسكوها يظنون أنها لاتروج ».

فليس من شيء عند هذه الشخصية الكبيرة يدعى غريبا، لقد دقق أنواع الحياة من طبيعة وانسان، وكان الجسر بين الشرق والغرب، وبين العقل والقلب ــ ادرك الحياة بعقله وأحبها من كل قلبه، ولم تكن تدقيقاته الطبيعية مخلة بالاعتقاد بتلك القوة التى سببت الحياة، ويعتقد أنها فوق كل مسمى: « سمه كيف احببت، سمه حبا، قلبا، إلها، ليس عندى له اسم، فكل مشاعرى له »

أثبت لنا النابغة غوته، أن المدقق والجامع للتجارب لايصل إلى الانكار والاجحاد إذا كان قلبه السليم يصحبه فى كل مكان؛ فغوته ليس ذلك الشاعر الذى يخدعنا، بل يصور لنا الحياة تصويرا صادقا، وما أحوج العالم الى رجل عظيم أوتى حكمة وعلما، يفتش عن الجمال ويعلمنا بذلك كيف نصير سعداء.

وهكذا تحتفل كل المانيا بهذا الرجل الكبير، ويحضر رئيس الجمهورية بالذات إلى «وايمار» المدينة التى عاش بها ذلك الشاعر.

ليت إقامة مائة عام على وفاة الشاعر غوته، تكون لنا عبرة عظيمة لتقدير أشخاصنا التقدير اللازم، فان عندنا من النوابغ الكثير، بعثوا فينا روح حياة جديدة، ولكن نصيبهم منا كان الجفاء والاهمال ؟

محمد يحيى الهاشمي

الحياة النفسية للجنس الاسود

للاستاذ أحمد فؤاد الاهوانى

أستاذ الفلسفة بالمدارس الثانوية

إنك إذا نظرت إلى الناس على كثرتهم عداً ، واختلافهم شعوباً وأمماً ، وتباينهم نحلاً ومللاً ، لأمكنك بالرغم من كل ذلك أن تضرب صفحاً عن كثرة عددهم واختلاف شعوبهم وأممهم ونحلهم ومللهم ، ثم تجمعهم جميعاً تحت جنس واحد يندرجون تحته ، ويلم هذه الأفراد المتباينة المتباعدة ، ذلك الجنس هو الانسانية ؛ ولكنك مع ذلك تستطيع أن تحللها ، لا إلى دولها وممالكها وأقطارها ، فهى كثيرة لا يحصيها العد ، ولا إلى لغاتها ولهجاتها فهى متعددة مختلفة ، فهذه كلها أقسام صناعية ، هى أعراض مفارقة قابلة للزوال ، فالأمم تمحى من صفحة العالم ويقوم على أنقاضها أمم طارئة ، وقد تقص أجنحتها أو تتسع رقعتها ، وقد تزول لغة الأمة ويستبدل أهلها لساناً غير لسانهم ولهجة غير لهجتهم ؛ ولكننا نريد أن نصنف الانسان فى أجناس ثابتة ، تقوم على فوارق ذاتية غير عارضة ، واختلافات دائمة طبيعية غير زائلة ، فاذا اتخذنا أساس تصنيفنا المميزات الجسمية والظواهر النفسية ، أخرجت لنا ثلاثة أجناس كبار ، تتفق فى الانسانية عامة من ناحية ، ولكنها تختلف فى بعض الصفات والمميزات من ناحية أخرى ، هذه الاجناس الثلاثة هى : الجنس الأسود ، والجنس الأبيض ، والجنس الأصفر ؛ وهذا أفضل تقسيم ، لا لسهولته ووضوحه فقط ، ولكن لثبات هذا التقسيم إلى درجة كبيرة ، فهناك لكل جنس من هذه الأجناس مميزات خاصة يعرف بها ، ولا يهمنا الآن ذكر صفات الجنس الأبيض والأصفر ، ولكننا نذكر مميزات الجنس الأسود الذى نريد أن نتناوله بالبحث . وقد فطن ابن خلدون فى مقدمته إلى مثل هذا التقسيم الحديث ، وإن كان تقسيمه عرضة للتجريح من نواح متعددة ، إلا أنها محاولة نستطيع أن نقول إنها الأولى لشرقى هو أول من تناول علم الاجتماع وشيئاً من علم النفس بطريقة منظمة ؛ ولكن ابن خلدون لم يذكر من صفات الجنس الأسود إلا لونهم الأسود ، ثم ذكر تعليل هذا اللون من ناحية ، ووجه نقداً مريراً شديداً إلى من تناولوا هذا الموضوع بالبحث من قبل وأخطأوا فيه من ناحية أخرى ، قال فى المقدمة الثالثة : «وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ، ظهر أثرها فى لونه ، وفيما جعل الله من الرق فى عقبه ، وينقلون فى ذلك حكاية من خرافات القصص ؛ ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة وليس فيه ذكر السواد ، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لولد اخوته

لاغير — وهنا تقرأ تعليل ابن خلدون لطبيعة السواد فانظر — وفى القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات ، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الأقليم الأول والثانى من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب، فان الشمس تسامت رءوسهم مرتين فى كل سنة قريبة احداهما من الأخرى ، فتطول المسامتة عامة الفصول ، فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر»

وقد فطن ابن سينا إلى هذا الأمر فقال فى أرجوزته فى الطب :

بالزنج حر غير الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

أما العلماء المعاصرون فانهم قد بحثوا المسألة بحثاً علمياً، استنفدوا فيه كل أجزائها ونواحيها، وكانت نتيجة بحثهم وملاحظاتهم أن الجنس الأسود يختلف لونه من البنى الغامق إلى الأسود الشديد السواد، وشعورهم دائماً سوداء قصيرة ومجعدة ، وقليلا ما تنبت لحاهم ، وإذا نبتت كانت مجعدة أيضاً، والرجل الأسود هو (دوليكوسفال) (DOLICHOCÉPHALES) وهى من الكلمتين الأغريقيتين (Dolichos) ومعناها طويل، وكلمة (KEPHALE) ومعناها الرأس — أى جمجمته على العموم تمتد من الامام الى الخلف وضئيلة الحجم ، والجبهة ضيقة ومسطوحة ، وعيونهم الغامقة تتوسط رءوسهم، والأنف كبيرة ومفرطحة ، والفم واسع ذو شفاه غليظة.

والآن ماهو الفرق من الناحية النفسية بين الأجناس الثلاثة اذا صرفنا نظراً عن فوارق السن والدولة والطبقة والفوارق الشخصية والجنسية ؟ شبه كثير من العلماء الاجناس الثلاثة بالمراحل الثلاثة لحياة الانسان : الطفوله والشباب والكهولة . فبين الطفل والانسان الفطرى أوجه شبه متعددة، فالجنس الأسود كالطفل؛ وهذه الموازنة ذكرها كثير من علماء الاجتماع وعلماء الأجناس أمثال : سبنسر ، ودينكر(١) ، وليتورنو ، وهوفيلاك ، كذلك كثير من الرحالة . أما الجنس الابيض فهو كالشاب ، والجنس الاصفر كالكهل؛ ويجب أن لاننسى أن هذا التشبيه عام يترك وراءه كثيرا من الشواذ.

لنصف بعد ذلك هذا الجنس الأسود من الناحية النفسية ، أعنى من ناحية حياته النفسية التى ذكرنا فى عدد سابق من «المعرفة»، من ناحية إدراكه وتفكيره ، وجدانه وعاطفته ، نزوعه ورغباته وإرادته وميوله . وأول مايلفت النظر هو أهمية حاجياتهم الطبيعية لهم، فكل مايهم الأسود قبل كل شيء هو الرغبة فى الطعام والشراب ،وكذلك الميل الجنسى ؛ والشعوب الفطرية التى تسكن أواسط أفريقيا وجزر المحيط الهادى لاترتقى كثيراً عن مستوى الحيوان ، وذلك لشهوتهم الملحة نحو الأكل ، والصيغة المنحطة التى يشبعون بها هذه الشهوة ؛ فغاية

[1] DENIKER.LES RACES ET LES PEUPLES DE LA TERRE.

الزنجى أن يملأ بطنه حتى النهاية ، وهو بهذا سعيد لأن السعادة كثيراً ماتكون نتيجة البطون الممتلئة ، وبعض هؤلاء الزنوج من أكلة البشر ، ولكن ليس من طبعهم لؤم ولا إفساد ، بل تقوم الحرب عندهم للبحث عن الطعام ، فهى بذلك نوع من أنواع الصيد.

وحواسهم فى الغالب مرهفة ، ويستعملونها قبل كل شىء لاشباع حاجاتهم الطبيعية ؛ والزنجى كثير الحركة ، فهو أشبه فى حركته بحركات الأطفال ، ويميل إلى الرقص ميلا شديداً قد يصل إلى حد الشغف به ، ويصحب الرقص موسيقى أولية تستثير نفسه فينتشى من الأنغام والحركات ؛ وقد وصف ابن خلدون شغف الزنوج بالأكل والرقص وأرجعها إلى أسباب طريفة ، قال فى المقدمة الرابعة : « من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق فى كل قطر ، والسبب الصحيح فى ذلك أنه تقرر فى موضعه من الحكمة ، أن طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس ، وهو انقباضه وتكاثفه ، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار ، مخلخلة له زائدة فى كميته ، ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور مالا يعبر عنه ، ... ولما كان السودان ساكنين فى الاقليم الحار ، استولى الحر على أمزجتهم ، وفى أصل تكوينهم كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الاقليم الرابع أشد حرا ، فتكون أكثر تفشيا فتكون أسرع فرحا وسروراً ، وأكثر انبساطا ، ويجىء الطيش على أثر هذه ... » ؛ وقد تناول غير ابن خلدون ممن سبقوه ذكر تعليل أخلاق السودان ، فقد سفه ابن خلدون نفسه آراءهم فقال : « وقد تعرض المسعودى للبحث عن السبب فى خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم ، وحاول تعليله فلم يأت بشىء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحاق الكندى ، أن ذلك لضعف أدمغتهم ، وما نشأ عنه من ضعف عقولهم ، وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه » . ولا نريد أن نتعرض لنقد رأى ابن خلدون طويلا ، فليس هذا شأننا الآن ؛ ولكننا نقول إن كلا الرأيين : رأى المسعودى ، ورأى ابن خلدون خاطىء ، أو إذا كان به نصيب من الصحة ففيه كثير من الخلط والابهام والغموض ، وذلك أنه — ومثله فى ذلك مثل كثير من القدماء — يخلط المشاهدة بالتفسير ، والتعليل بالواقع ، ذلك أنه فى مثل هذه المسائل نكتفى بالملاحظة الدقيقة التى نشاهدها عن بحث أسبابها وعللها ، لأن هذا يدخلنا فى جدل لا خلاص منه ، ويخرج بنا من ميدان العلم الوضعى الصحيح إلى ميدان الفلسفة وما وراء الطبيعة .

نعود إلى ماذكرناه من وصف الظواهر النفسية عند الزنوج ، فنقول إن الاحساس والحركة تشغل تقريبا كل مجرى الشعور الضيق عندهم ، فلا يبقى بعد ذلك إلا مكان تافه لذكريات الماضى ، ومشاغل المستقبل .

وتلعب العادة دوراً مهما فى حياة الزنجى التى تجرى على وتيرة واحدة ، فهو يميل إلى أن يردد على نسق واحد وبطريقة جد آلية الافعال التى عملها من قبل ، فهو يتذكر الأشياء ليعملها بنفس الطريقة التى سبق أن أتى بها هذا العمل ، وهذه الذاكرة التى نستطيع أن نسميها ذاكرة نفعية ، كثيرا ما تكون على شىء من الحدة شديد ، بل قد تكون أحيانا خارقة للعادة ومما يحكى فى هذا الصدد أن بعض المبشرين الذين ذهبوا إلى أوساط أفريقيا شاهدوا بعض الزنوج يحفظ قطعة موسيقية بأكملها لأول مرة دون أن يخطىء فيها ؛ ومع ذلك فالزنجى يضطرب فى استحضار الصور المختلفة التى مرت عليه خلال النهار ، فتصوره للماضى من هذه الناحية غامض مبهم مضطرب ، إذ يخلط بين ما يتذكره وما يتخيله ، ثم هو بعد ذلك يقع فريسة لأوهامه وخيالاته ، وقد كانت نتيجة اضطراب الذاكرة وخلطها أنه لا يعرف حسابا دقيقا مضبوطا للزمن ، فالزنجى يجهل حتى عمره ؛ هذا ولما كان الزنجى لا يحسن التذكر فانه قليل البصر بالمستقبل أو ماقديقع فى المستقبل ، وقد أجمع الرحالة على طيش الاستراليين وأهل أواسط أفريقيا وغفلتهم العجيبة ، فالاستراليون عاجزون عن أداء أى عمل متواصل ، لا يجنون ثمرته إلا فى المستقبل ، كذلك (البوشمان) فعندهم إما رخاء ويسر أو قحط وعسر ؛ فالزنوج مؤمنون بالقضاء والقدر ، تكفيهم الساعة التى هم فيها دون أن يتطلعوا إلى المستقبل .

فلما كانت حياتهم محدودة بالوقت الحاضر ، كانت حياتهم النفسية محدودة كذلك إلى حد كبير ، فالشطر الوجدانى من الحياة ـ وهو أهم شىء فيها كما بينا عند الكلام على الانفعالات فى عدد سابق من « المعرفة » ، حياتهم الوجدانية متقلبة وغير بعيدة الغور ، فانفعالاتهم حادة ولكنها لا تدوم ؛ كذلك لاحظوا عليهم خفة كخفة الاطفال ، وفرحا وقتيا ، ولا يهتم الزنجى بما يجىء بعد ذلك ، فقد ينتقل من الضحك إلى البكاء ، ومن البكاء إلى الضحك ، كل ذلك فى فترة قصيرة جدا كما يفعل الاطفال تماما .

أما ذكاؤهم فلا يبعد كثيرا عن الحس ، ويقول سبنسر نقلا عن (بريتون)(١) : إن العقل الافريقى ـ يريد أواسط أفريقيا ـ لا يستطيع أن يسمو فوق دائرة الحواس ، ولا يستطيع أن يشغل نفسه بغير الحاضر .

وحياة النزوع عند الزنجى ، أى ما يدفعه إلى الحركة ، أكثرها أفعال منعكسة REFLEXEs ورغبات طبيعية اكثر منها حياة خاضعة لارادة قوية ، فسلوكه كما يقول سبنسر سلوك نزوات واضطراب ؛ والتعليم عند الزنوج ، إن كان هناك تعليم ، محدود إلى درجة كبيرة وهو أقل فى درجته ، كما وكيفا ، مما تتلقاه الطبقات المنحطة عند الجنس الابيض والاصفر ، لأن التعليم ، وديعة السلف إلى الخلف ، وهؤلاء لا يتلقون من أسلافهم إلا شيئا ضئيلا ، وذلك لأن حياتهم الاجتماعية ، مثلها فى ذلك مثل حياتهم الفردية ، تتلاشى فى الزمن الحاضر ؟

أحمد فؤاد الاهوانى

---

[1] SPENCER — PRINCIPLES OF SOCIOLOGY.

قصة مصرية

ليـــــــــلة فى العمر

بقلم الأستاذ محمد السيد

دخل (الحاخام) منزل المرأة العزباء، ثم ألقى نظرة سريعة على الموائد الموضوعة فى الردهة وما عليها من الآنية الفضية ، وما حولها من معدات مأدبة أنيقة، وإن لم تكن ذات بال، ثم التفت إلى ربة البيت وقال: حسنا — لقد أعددت كل شيء يا (إستر) .

فأجابت المرأة على الفور : أجل يا سيدى الحاخام .

ثم تفقد الرجل بعض الآنية الموضوعة على الموائد ، وأخذ يحدق إليها مليا، وجعل يطريها، ويطرى صاحبتها التى تمنى لها حياة سعيدة ناعمة ، ثم انصرف لشأنه (ضاحكا) تشيعه نظرات حائرة ، وآهات مكنونة ، من أعماق تلك المرأة السعيدة ، أو المرأة البائسة ، على السواء .

ودعت (استر) ضيفها ، وعادت ... مهمومة ، مسرعة ، كأن شيئاً قد فاتها ، أو كأنها تريد أن تدرك القطار ، وقد آذن موعد الرحيل ... فهى تصدر أوامرها للخدم ، ثم تجلس هنا هنيهة ، وتقف هناك برهة ، تباشر بنفسها عمل كل شيء ، وإن كانت لا تعمل أى شيء .

ثم حانت منهـا التفاتة إلى المرآة الموضوعة فى الردهة ، فتقدمت منهـا رويداً رويداً ، وراحت تتأمل نفسها ، وتمعن ، وتدقق ، كأنها تفحص شيئا ، أو تبحث فى المرآة عن شيء فلا تجده ، ولا تصل إليه . . . وكانت نتيجة ذلك أن أخذتها رعدة ، ثم احتواها شعور غريب ... ينم على خوف من شيء مجهول ما كانت تعرفه من قبل أو تفكر فيه ... ذلك أنها رأت (مفرقها) وقد علته شعرات بيضاء ، فارتاع فؤادها ، وراعها ما راعها ...

ويلاه!.. ويلاه !.. ماذا حدث ؟ حتى ابيض شعرى !! أعجوز أنا ؟

كلا ... وألف كلا ... فأنا ما أزال صبية ... نعم : أنا صغيرة ... فى فجر العمر ، وشرخ الشباب ... أليست آية ذلك أنى لم ألد إلا مرة واحدة ، وليس لى إلا ولد واحد ؟...

وراحت تغالط نفسها ، وتقيم الأدلة والبراهين على أنها ما تزال صغيرة حتى لقد ألقى فى روعها أنها ماتزال بكراً لم يمسها إنس ولا جان ...

وسرعان ما ارتدت عن المرآة مغيظة محنقة ، ولو كان بيدها أو بجانبها شيء تكسر به تلك المرآة اللعينة لما ترددت ...

***

(استر) تلك امرأة نصف ، لا هى بالفتاة الحسناء ، ولا بالعجوز الشوهاء، تبدو للناس : مرحة ، أنيقة ، نزقة ، لا تعرف من حساب الزمن إلا أنها تعيش ليومها ، تعبث بالحياة وتضحك

من الناس ، فالهم لا يعرفها، وهى لا تعرفه ، ثم من ذا الذى يستطيع فى هذه الدنيا أن يحزن تلك المرأة التى رحل عنها زوجها إلى الدنيا الحديثة حيث يعيش فيها ، ثم رحل أبواها إلى الدار الآخرة،وبقيت هى من غير زوج ولا أهل ، تستسهل صعب الحياة وتعيش بثغر دائم الابتسام، فلا تراها إلا ضاحكة أو عابثة ...

***

ولما أقبل المساء، توافد المدعوون، حتى امتلأت بهم ردهات البيت وحجراته ، وكل منهم يهنىء (العروس) ويتمنى لها أعذب الأمانى، وأرغد العيش وأهنأه وأصفاه ، ثم أخذ القوم يسمرون ، ويلهون بما أعدت لهم تلك المرأة من : لهو ، وطرب ، وفكاهة .

***

وما أن دخل (العريس) الشاب فى جمع من صحبه وخلانه يتعثر فى ثيابه الفضفاضة وحذائه الفخم ، حتى التهمته أنظار الكافة متضاحكين متغامزين... ثم تقدم به نفر من صحبه إلى (العروس).

ولقد استقبلته أحسن استقبال ، ثم جلس بجانبها يحدثها ...

ـ أين العروس ياهذه ؟ فأجابته : أنا هى...

ـ أنت ؟.. أنت العروس إذن !!!

ـ نعم: أنا هى ... ألست أنال رضاك وأحوز إعجابك ياسيدى ؟

ـ كيف لا ؟

ـ لكن أنت ... (مسنة) ، أليس كذلك ؟

أجابت فى غضب ، وجفوة : مسنة ؟ كيف ؟ أأنا مسنة ؟!! لا لا لا ... أنا لست مسنة ، أنا شابة . . . افتح عينيك ، وانظر جيدا ... ولماذا تأخذ الألف جنيه إذا كنت أنا مسنة؟

ـ عفواً ياسيدتى ، أنا نسيت... أنا أخطأت ... اغفرى لى من فضلك ، فان فيك ملامح بل شبها قويا من المرحومة والدتى التى اختارها الله منذ عشرة أعوام كاملة ...

***

وكان (مراد) أو (كلوبوزو) ـ كما يسميه أطفال الحارة الأشقياء ـ يبيع اليانصيب،فقيرا معدما ، لا يكاد يجد ما يتبلغ به ، يمشى طوال الوقت يعرض أوراقه ، فاذا انتهى النهار وشطر كبير من الليل ، آوى إلى كهف فى (الحارة) من تلك التى يصطنع المبيت فيها أبناء السبيل لقاء مليمات...فاذا كان اليوم الثانى عاد سيرته، فهو من الشقاء والفاقة كمن يسير فى اسطوانة مفرغة تنتهى حيث تبتدىء وتبتدىء حيث تنتهى .

وكان (مراد) إلى جانب هذا ساذجا ، فالتفت إلى زوجته وأخذ يسألها : أكل هذا المنزل وما يحتويه لك وحدك ؟ أهل كل ما تلبسين من جوهر وذهب لك وحدك ؟ هل هذا كله لك ؟

ولما لم تجبه تولى هو الاجابه بنفسه عن تلك الأسئلة جميعها...
ــ نعم إن التى تدفع للعريس(دوطة) ألف جنيه، تستطيع أن تملك الدنيا وما فى الدنيا...
ثم أخذته طيوف لذيذة وأحلام كلها هناء وسعادة ، فراح يسألها مرة أخرى:
ــ والألف جنيه متى تدفعينها ؟
ــأدفعها الآن حالا ...
ــ ولـكن ماذا أفعل بها ؟
ــ تفعل بها ماتريد ...
كيف أفعل بها ما أريد ... إنى أريد أن أعرف ماذا أصنع بها... ألست زوجى ومن حقى أن أستشيرك فى كل شىء ؟
فأجابت : نعم ، هو ما تقول ...
ـ غدا ؟ لا ليس غدا ، بل الآن اسمعى ... ستدفعين الألف جنيه ، وسأقبضها طبعا ومن غير شك ، أليس كذلك ؟
ـ نعم ستقبضها ...
إذن : أستطيع أن أكون تاجرا ... تاجرا كبيرا ... لكن السوق فى هذا الزمن قلب، ربما أضاعت النقود، فالأحسن أن أتجر بمائة وأضع الباقى فى البنك، لاحسابا جاريا ،ولـكن بفائدة ... أليس الأحسن ذلك ياعزيزتى ؟
ـ أنت حر فى مالك طبعا ...
ـ أوه ... ألست زوجى ، ومن حقى أن أستشيرك فى مهماتى ؟
ـ نعم هو ذلك .
ثم أخذ يستعجلها قبض المبلغ ،فاستمهلته حتى يحضر(السنيور) لأجراء صيغة العقد الشرعية أولا ، فوافق واشترك مع الجمع الحاشد فيما هم فيه من مأكل ومشرب ولهو غير أثيم.

***

ولما وافت الرابعة صباحا أخذ الحاضرون يتسللون إلى الخارج لواذا ، ولما لم يبق إلا خدم المائدة استعجل (مراد) صاحبته .
أين (السنيور) وأين الدنانير ياهذه ؟
ثم أخذ هذا الاستعجال يتطور إلى شىء من الأمر والنهى ، بل إلى شىء أخر من الشغب والملاحاة.
فقاده اثنان من الخدم إلى الخارج ،ودفعا به إلى غول الظلام واليأس ،وأسر أحد الشقيين فى أذن المسكين : ألا تعرف أن هذا اليوم أول إبريل (ياعبيط) ؟

محمد السيد

رســـــائل الحب

لفيكتور هوجو

أحب فيكتور هوجو ، وملأ الحب فراغ ذهنه ، واستأثر بعواطفه ، وملك عليه مشاعره، وكان يبعث إلى تلك التى أحبها ثم خطبها لنفسـه ، الرسـالة تلو الرسالة ؛ وكانت تلك المحبوبة أو الخطيبة حاذقة لبقة، عرفت كيف تصون تلك الرسائل من العبث، فوضعتها فى مكان أمين حتى إذا ماقضى شاعرنا نحبه ظهرت تلك الرسائل كأثر فنى بديع، يترجم عن عواطف الشاعر الذى ملأ اسمه الدنيا ، وردد ذكره كل لسان .

ويكفيك تعريفا بهذه الرسائل وقيمتها مناجاة فيكتور نفسه لها فى كتابه (اوراق الخريف) حينما كان قد جاوز سن الشباب.

قال يناجيها : —

يارسائلى المحبوبة !

ياتذكار الصبا !

ياترجمان الحب والفضيلة !

أهذه هى أنت ؟ وهل حقا كنت قد خططتك بيدى ؟

إذن فلأركع أمامك ، وليطل ركوعى حتى اقرأك، لأنك سفر السعـادة وتذكار الهناء .

من لى بمن يرجعنى ، ولو يوما واحداً، إلى يوم سطرتك، ثم أعود كما أنا الآن الرزين العاقل لأستطيع أن أقارن بين عهدين ، وأفاضل بين زمنين ، ولأستشعر اللذة التى فقدتها ، وليكن مايكون بعد هذا .

هل كنت فى الثامنة عشرة من عمرى يوم كتبتك ؟ وياترى كيف كنت وأنا أسطرك ، وماذا كان مبلغ الامل والرجاء عند ما كنت أطرب لما سطرته أناملى ؟

لقد كنت كلما زادت نشوتى نهنهنى أمل قد كان ـ وآسفاه ـ كاذبا، حتى لقد كانت تبدو فى سماء ذلك الأمل كواكب يلوح لى أن سأهتدى بها، ولـكن سرعان ما كانت تختفى!

أيارسائلى! لقد خلقتك يدى بالأمس، فكنت أشبه ما أكون باله لك، ولـكننى صرت رجلا، ولا أدرى مم يخجل الرجل؟ وممن يخجل إذا أعاد ذكريات الصبا، ذلك الصبا المملوء بالاحلام والقوة والآمال ؟ فأين أنت أيها الزمن يوم كان الشـاب يقف فى مفـترق الطرق كل مسـاء يستعرض الوجوه وجهـا وجها ، ويتفرس فى الحلل حلة بعد حلة، عله يجد أثرا لفاتـكته، ثم يعود إلى

بيته ولم تكتحل عينه برؤيتها، فيعمد إلى أثر من آثارها ينهال عليه تقبيلا، كذلك كنت من قبل، أشبع قفازاً لمعبودتي - كانت قد تركته لي - تقبيلا، كأنني أقول مع القائل:

أقبله على الذكرى كأني أقبل فيه فاك ومقلتيك

يا لزمان الصبا، ما أجملك! أنت زمن القوة، والاخلاص، والحب، والتألق، وعلو الهمة، بل أنت زمن الطهارة أيضا، فيا أسفاه لفقدانك، ومن لي بالعودة إليك!

***

تلك هي رسائل هوجو شاعر فرنسا: رسائل الحب، رسائل الفضيلة، رسائل الصبا التي حفظتها محبوبته بأوفر اعتناء، والتي ترجمت عن عواطف وكشفت عن سر الصبا، ها نحن نترجمها إلى اللغة العربية ليستطيع أن يقرأها من لم يسعده الحظ بقراءتها باللغة الفرنسية.

بل ها نحن نقدمها عظة للشبان وسلوى للشيوخ، وآيات لأولى الألباب.

الرسالة الاولى

مساء السبت .. يناير سنة ١٨٢٠

معبودتي أديل!

صدرت منك ياسيدتي كلمات أثارت كامن عواطفي، واهتاجت شاعري، ولو أنني كنت بالأمس قضيت نحبي ما كان هناك شيء يبعث في الحياة غير صوتك الحنون، ولثمك الرقيق، فروحي عالقة بك، تحيا بهما.

إنني اليوم غيري بالأمس، بالأمس كنت أتوق إلى الموت وأتمناه، واليوم صرت أشعر بأنني يجب أن أعيش لك وبك، وهبي أنني تصورت أنك لا تحبينني فهل في ذلك مايدعو إلى الموت؟ وهل أعيش أنا لنفسي أو لسعادتي الخاصة؟

لا، لا. إن نفسي يغمرها الاخلاص لك، ولست أدري بأي وجه أستحق حبك مع أنني لست إلها أو ملاكا، بل كل مافي الأمر أنني عبدك، أكرس حياتي لخدمتك، والدفاع عنك لقاء بسمة توجهينها إلي، أو كلمة تقولينها لي.

إنك أملي في الحياة، بل إنك ربيع الحياة، ولئن أظهرت عدم الاهتمام بي، أو بدت البغضاء من فيك، فلن يكون أثر ذلك غير تعاستي وشقائي، ولن يضيرك ذلك ياسيدتي، ولكنه لا يجدر بك وأنت تعلمين وفائي وإخلاصي لك.

إن واجبي هو أن أتبع آثارك، وأترسم خطواتك، وأجتاز كل حاجز يحول بيني وبينك تلقاء أن تتخذي من ذراعي متكأً لك إذا سرت، وأن تمنحيني نظرة عطف وإشفاق كلما التقيت بك، وأن تذكريني عند كربتك، وأن تسمحي لي — إذا ما اشتهيت — أن أقبل موطىء

قدميك المعبودتين ، ولئن فعلت لذللت أمامى كل صعوبات الحياة ، وتلك هى السعادة التى أحلم بها وأرجوها .

ولئن كنت مستعداً لكل ذلك فهل أعتبرك ياسيدتى مدينة لى بشىء ؟ كلا ! فلا ذنب لك لأنى أحبك ؛ ولكن الذى أرجوه فى خضوع ، ألا تهزئى باخلاصى ، وألا تستهينى بما أعرض عليك من خدماتى ، وإن كنت أرى أن ما أفعله يحسب تضحية بالنسبة لما يغمر قلبى من الغرام بك ، والحب لك .

لقد كان رأسى بالأمس عامرا بكل هاتيك الافكار ، ولا تزال هى هى حتى هذه الساعة ، وستظل ما تردد فى نفس ، وما دبت فى جسمى الحياة .

هل حقا يامعبودتى أنك تحبيننى ؟ قولى بربك : هل تجدين هذا الحلم اللذيذ يتحقق ، وهل لى إلا أن أتيه من الفرح إذا قدر لى أن أمضى حياتى تحت قدميك ، وأن أتأكد من سعادتك باجتماعنا كتأكدى من سعادتى بهذا الاجتماع .

آه ! يامعبودتى ، إن رسالتك أعادت إلى الراحة المفقودة ، وكلامك غمر قلبى بالفرح ، فألف شكر لك يا أديل ، ياملاكى المعبود .

إلى الملتقى ، إلى الملتقى ، وسأكون سعيداً هذه الليلة لأننى سأحلم بك ؛ فلتنامى هنيئة ، ولتمنحى زوجك القبلات الموعود بها ، واسلمى للواله بك ؟

(فيكتور)

الرسالة الثانية

الاثنين ٢٨ فبراير سنة ١٨٢٠

معبودتى أديل !

يؤلمنى يا عزيزتى أن يكون كتابى إليك ردا أومناقشة ، لما ظهر لى منك مساء أمس ؛ إن خطابك مهما أثار فى نفسى فهو عزيز لدى ، لأن فيه برهانا جليا على ميلك إلى ، أعترف ياسيدتى ، فى غير إبهام ولا غموض ، أننى كنت مخطئا وأنك كنت محقة ، وإننى أتقدم إليك مستغفرا عن هذه الخطيئة راجيا أن تغفرى ، فلست أنا الذى يتولى أمر القصاص منك ، بل لا أستطيع أن أعاقب روحى على شىء يصدر منها مهما كان عظيما ، وما روحى إلا أنت أيتها العزيزة ، فتحتم على أن أحميك ، وأصونك ، وأدفع عنك كل أذى .

تحدثى إلى دائما ياسيدتى عن كل مايقع لك أو منك ، أخبرينى عما تفعلينه ، صارحينى بما تفكرين فيه ، ففى ذلك حياة لقلبى الموله بك .

اسمحى لى أن اعتب عليك فى أمر صغير ، وتجاوزى عن هذا العقاب فان عين الحب نقادة : أعلم أنك تميلين إلى الرقص ولذلك ترتادين المراقص ، وقد صرحت أنت لى بذلك ، فلم رفضت

دعوتى التى وجهتها إليك أخيراً ؟ أولم أتجنب من أجلك المراقص بأجمعها ؟ أولم أهجر كل مكان للهو تلبية لرغبتك ؟ ومع ذلك لم أعتبر هذا تضحية منى، لأنى أرى أن التضحية لاتكون إلا فى ترك شىء يسبب للنفس اللذة ويجلب لها السرور ؛ أما أنا فلذتى وسرورى فى وجودى بالقرب منك .

الحق يا سيدتى أننى كثير الغيرة ولكنى أكظمها فى نفسى، وأرى أنها يجب ألا تنتصر على الحب ، بل يجب أن أدع لك الحرية فى أن تتمتعى بما تجدين فيه أنت ولداتك مسرة ومرحا ، وإن كنت أعلم، أو على الاقل أظن، أنك ستجدين فى الجمع الزاخر بالفتيان من هو أنضر منى وأكثر ظرفا وتأنقا ، ولكنى أعلل نفسى بأنك لن تجدى من وراء هذا الجمال الحنو الذى تتطلبين ، والطهارة التى تريدين .

لست أريد ياسيدتى أن أزعجك بسرد آلامى، فكل بغيتى أن تكونى أنت سعيدة، فالى الملتقى إذاً ، ولتتحدثى إلى كما قلت لك عن كل شىء ، وأملى أن تضرعى إلى الله أن يلهمنى الجرأة والحذر والصبر ، أوالحذر والصبر وحدهما ، فهما كل ما أتمنى، وإننى اكون فرحا كلما تصورت أنك لى ، وأنت فى الحقيقة لى رغما عن كل ما أتصوره من العقبات التى ستعترض سبيلنا ، ولكنك نعمة السماء الممنوحة لى ، فهأنا أنادى كما قال شارل السابع من قبلى : « ما وهبه الله لن ينزعه الشيطان » .

الوداع الآن، واسمحى لى أن أتخيل أننى أقبلك وأن هذه القبلة واحدة من عشرات تدين بها زوجة وفية لمحبها المخلص ؟

(فيكتور)

الرسالة الثالثة

٢٠ مارس سنة ١٨٢٠

عزيزتى اديل !

أكتب إليك على رغم ما يحيط بى من ظروف محرجة ، وأرجو أن تكون التوكيدات التى تقدمت بها إليك كدليل على وفائى لك .

مرى وعلى أن أطيع لتتأكدى من هذا الوفاء ، ولتكونى مطمئنة البال ؛ فهأنا أقسم لك أنك كل شىء لى فى الحياة وأن مايسرك يسرنى ؛ ولقد كنت أود ياعزيزتى لوأستطيع أن أحضك على الصبر والاحتمال، ولكن عجز لسانى عن التصريح لك بهذا ؛ وفى مصلحتى أن أدعوك إلى هذا الصبر لتبتهجى وتفرحى ؛ لأن « ألمك يؤلمنى » كما أن ابتهاجك يسرنى ، وكفى ذلك ياصديقتى ، فليس من حقى فى هذه الرسالة إلا أن أتكلم عن نفسى ، وأعتقد اننى لن أكون تعساً قط لأنى أحبك، والحب ينبوع السعادة .

أستودعك الله راجيا أن تثق من وفائي لك ، وأن تجعلى قلبك عامراً بالثقة بي ، واني سأمحو من ذهني كل ماثار بيننا ، وعليك أن تدللي على الوفاء بأن تكتبي إلي دائما ، وأن تكتبي في حذر واحتياط ، وأن تحرق جميع رسائلي إليك ، فذلك مايحتمه الحذر .

الوداع .. الوداع .. ياعزيزتي ! ولتكتبي إلي ، فرسائلك سر الحياة ؟ (فيكتور)

الرسالة الرابعة

٢١ مارس سنة ١٨٢٠

لم أستطع أن أبعث إليك برسالتي أمس ، ولذا أضيف اليها هذه الأسطر :

أنا الآن وحيد أخلو بنفسي وذكرك يملأ خلايا ذهني ، لذلك أنتهز هذه الفرصة لأكتب إليك ؛ وكم كنت أتمنى لو أنك كنت إلى جانبي في هذه العزلة أناجيك عن كثب بمكنونات قلبي .

لم تأخرت عني رسالتك في يوم السبت المنصرم ؟ ألم تعترفي بأن لديك شيئاً تودين الافضاء به إلي ، فلم لم تفعلي ؟ ذلك خطأ أرجو أن يمحوه ماستسطرينه في رسالتك القادمة ، وكم أنا غيور بايجاد طريق الى لومك لأنتهزها فرصة تمكنني من إطالة الكتابة حتى تشبع نفسي الظامئة اليك في ترديد اسمك .

اعلمي ياسيدتي أنك خير مني آلاف المرات ؛ ولكن على الرغم من ذلك فأنت لي ... أستودعك الله الذي أرجو أن يمنحنا اجتماع لحظة نتسامر فيها ونشفي غليل أفئدة شفها الغرام ؟

(فيكتور)

ترجمها : جوزيف أبو رجيلي

المكتبة المحمودية التجارية

بميدان الازهر

لقد امتازت مكتبتنا بما تحتوى عليه من نفائس المؤلفات القديمة والحديثة وحسن المعاملة والقناعة في الربح الصفتان اللتان عرفت بهما وهي مستعدة لتصدير كل ما يطلب منها إلى داخل القطر وخارجه بالجملة والقطاعي ، بغاية السرعة والاتقان .

جميع المخابرات باسم صاحبها (محمود علي صبيح) صندوق بوسته رقم (٥٠٥) مصر

وأخيراً ظهرت براءته

قصة مصرية في رسالتين

(١) «من محمد إلى عبد المجيد»

٢٠ أبريل سنة ١٩٢٤

أخي العزيز عبد المجيد افندى !

ما كنت أظن أن فى استطاعة الزمن أن يدور بنا هذه الدورة الفجائية العنيفة ، فيقلب كل شيء رأساً على عقب ، وتقلب حقائق الأشياء من النقيض إلى النقيض !

وما كان يدور بخلدى لحظة واحدة أن يسدد الدهر ذلك السهم الحقير المفلول الطائش فيحكم تسديده إحكاماً ، فيصيب من صداقتنا — بل من أخوتنا الوثيقة — مقتلا أو يكاد :

على أننى سأبذل كل مافى نفسى من قدرة ، وكل ما لدى من جهد ، فى سبيل القضاء على هذه الحركة الطائشة الهوجاء التى يحاول بها هذا الدهر الأخرق المأفون أن يغير من قلبين ليس فى مقدور أية قوة — فى العالم كله — أن تغير من هواهما ، إلا إذا كان فى حدود الامكان أن ينقسم القلب الواحد نصفين، ثم يتنمر كل منهما على الآخر فيصبحا عدوين :

أخى ! لقد كنا كما يقول الشاعر :

موافين أهواء - توافت على هوى   فلو أرسلت كالنبل لم تعد موقعا
إذا ما دعا منا خليل خليله   « بأفديك » لباه مجيباً فأسمعا

ولكن ! نعم ولكن يا أخى - ويجدر بى أن أصارحك أن الغيظ والحنق يتملكاننى ، وأن الحيرة والدهشة تستولايان على نفسى استيلاء، ثم تغمراننى فتغرقان نفسى فيهما إغراقاً.

أخى الوفى ! مضت ثلاثة أيام لم يهدأ لى فى غضونها بال ، ولا استراح لى خاطر ، ماذا ؟ بل إنى لأرى الغيظ والحنق يمزقان نفسى تمزيقاً ، ولو أن فى قدرتى أن أقول لك شيئاً لقلت ، ولو أن فى مقدورى الافصاح عن تلك الخوالج المبهمة الغامضة المتنافرة التى تجيش فى نفسى لأفصحت عنها ، بل إن فى مقدورى أن أفصح وأن أتكلم فتنقلب الأشياء ، وينجلى الباطل الحالك السواد ليحل به مكان الحق الساطع المنير ، ولكن أين سمعك وقلبك ، ومن لى بهما لحظة واحدة لأعيدك إلى رشدك ، آه لو انك قادر على الاصغاء إلى ما أقول، إصغاء حقاً لا أثر فيه للحياء والمجاملة ، إذن لأزحت عن عينيك هذه الغشاوة ، وكشفت لك هذه الغيوم المتلبدة التى حجبت عنك كل حقيقة ، فجلوتها لك ناصعة لاتقبل الشك ؛ ولكن كيف أقول وكيف أصنع وقد قلت لك من قبل كلاماً كثيراً فلم تقبل منى كلمة واحدة ، ولك العذر فى سوء ظنك،فقد

أحكم التدبير وحبكت المؤامرة حبكا متيناً، ولى العذر أيضاً فأنا أشهد فصول المأساة القاسية، وأرانى - بكل أسف - بطل المأساة الذى يقوم بتمثيل أهم أدوارها .

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى أو كنت أجهل ماتقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتى فعذلتنى وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

ألا فلتثق يا أخى أننى لم أسىء إليك، وأننى لم أقترف أى ذنب، ومعاذ الاخلاص أن أخونك فى أعز شىء تملكه، وكيف أخونك وأنت نفسى وأعز على من نفسى ؟ لقد أقسمت لك بمحرجات الأيمان فلم أرك تزداد إلا ارتياباً ، فلأحتمل منك هذا الشك القاتل فأنا أعرف مصدره وأعلم أنك مخدوع، وأقدر ظروفك كلها حق قدرها ، وإنى لأخبر الناس بك ، بل أنا أخبر بنفسك من نفسك ، أنت يا أخى على أكبر قسط من الدماثة ووفور العقل والذكاء والوفاء والطهارة ، ولكن عيباً رئيسياً فيك - لاحيلة لى فى دفعه - وليس يضيرك هذا العيب ولكنه يضير سواك ، فقد كدت أن أذهب ضحيته ، أنت ضعيف الحيلة ياأخى، وهذا وحده هو كل عيبك ، فلو أنك تصطنع قليلا من الاناة والحيلة لفهمت كل شىء ، ولكن أى شىء ؟ ليس هناك أى شىء، بل هناك شىء واحد، إذا فهمته أنت أصبح المتهم بريئاً والبرىء متهما، ولكن سوء الظن هو الذى يدفعك إلى تصديق كل شىء متى رابك منه مالا يريب أحداً سواك ممن يسرفون إسرافك فى إساءة الظن. إنك يا أخى لتغمض عينيك إغماضاً وتصم أذنيك عن كل ما يجلو لك الحقيقة ، بل إنك لتخلق الريبة خلقاً ثم تعتقدها اعتقاداً جازماً ، فكيف إذا حدثك بها شخص آخر ، إنها لتصبح يقيناً لاسبيل إلى الطعن فيه ، سأصبر فليس لى حيلة غير الصبر، فان قلبى مطمئن إلى ظهور براءتى - بعد قليل من الزمن أو كثير - كما كان قلبى يشعر من قبل أن كارثة تهدد صداقتنا التى دامت أكثر من خمس وعشرين سنة .

وللنفس حالات تظل كأنها تشاهد فيها كل غيب سيشهد

يجب أن تعلم - وإن كان لاسبيل إلى إقناعك - أننى برىء ، وأننى أخلص لك وأسترخص كل شىء فى سبيل صداقتك الغالية ، ولكن من لى بمن يقنعك أن الحقيقة كلها فى ذلك الجانب الآخر الذى تأبى كل الاباء أن تمنحه نظرة واحدة تكشف لك كل الجوانب المستورة عنك وتوصلك إلى الحقيقة من أقرب طريق ، فان أبيت إلا أن تتنكبها لم تصل إلى غير الوهم والضلال: أخى ! ليكن كلام زوجك صادقاً لا يتسرب إليه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولتكن صادقة فيما اختلقته لى من التهم التى صدقتها منها وأخذتها قضايا مسلمة، وقد مر على بها خمسة عشر عاما ، كانت التهمة فى أول هذه الأعوام أقرب إلى العقل والمنطق منها فى هذه الأيام ، ولكن عدل الزمن كفيل بتبديد كل هذه الدياجى والظلمات الحالكة .

أخى ! لست أنتظر منك رداً على هذه الرسالة ولا أنا طامع فى شىء من ذلك ، وربما كان

فى قدرتك أن تفند كل كلمة من كلماتى إذا لجأت إلى أسلوب الجدل وربما هزئت بكل ما فيها من صدق وإخلاص إذا أصررت على إساءة الظن بى ؛ وبعد ، فانى أستودعك الله وأهمس فى أذنك : إن الأيام ستثبت أننى أنبل مما تظن ،وأقول لك من أعماق قلبى إننى صاحبك الوفى المخلص:

وإنى أخوك الدائم العهد لم أخن إن ابزاك خصم أو نبا بك منزل

محمد

— ٢ —

«من سامى إلى عبد المجيد »

١٤ يناير سنة ١٩٢٦ م

سيدى عبد المجيد افندى !

يجب أن أقول لك كل شىء ، فقد أرهقنى تأنيب الضمير ، وأصبحت لا أستطيع – أينما ذهبت – أن أهرب من نداآتى – ولم أر مخلصا من هذه الأزمات النفسية المتوالية إلا أن أفضى إليك بالحقيقة إفضاء، لتعود الأشياء إلى أوضاعها الحقة ، وتسميها بأسمائها الجديرة بها ، يجب أن تعلم أننى أنا المجرم الحقيق وأن زوجك الوفية المخلصة الطاهرة هى شريكتى فى الاجرام ،أما صديقك محمد فهو برىء حقا ، وهذا لا يكفى لانصافه ،فهو – إلى براءته وطهارة نفسه – نبيل عريق فى النبل :

يجب أن تعلم الحقيقة الواقعة ، وأن تنكشف عن عينيك هذه السحب التى طالما حجبت عنك هذه الحقيقة .

هل تذكر يا سيدى عبد المجيد يوم الاحد ١٩ إبريل سنة ١٩٢٤، لعلك لا تذكره ، ولكنى أذكرك به، فقد كنت فى ذلك اليوم تتلو على مسامع صديقك النبيل محمد أنفس بحث وفقت له فى رسالتك التى كنت تقدمها لنيل الدكتوراه ،والتى أحرزت بها أعلى درجات الفوز فى ذلك المضمار، تذكر ذلك اليوم ، لقد كنت مشغولا بحادثة صديقك الوفى – ثم زارك جماعة من أصدقائك فقطعوا عليك هذا الحديث، ثم... ياللهول ... ما أشد تقريع الضمير ياسيدى الأخ ، ثم فتح الباب بغتة وإذا بصديقك محمد يدخل فيرانى أقبل السيدة ،يالله، لقد اختلستها قبلة آثمة،وانا وزوجك الطاهرة فى مأمن من المباغتة، فقد كنا ننصت إلى حديثك فنطمئن من مباغتتك !

أما محمد فقد كان نبيلا حقا . وقد أدرك العلاقة الآثمة التى تربطنى بهذه الزوج الخائنة،وقد كان فى وسعه أن يملأ الدنيا جلبة وأن ينتهز هذه الفرصة للاتصال بالزوج، فقد ارتمت على قدميه وحاولت أن تقبله لترضيه، فانتفض انتفاضة المذعور ونظر إليها نظرة الحانق المغيظ،ثم خرج وانسللت أنا من الباب الآخر ، وتوقعنا الشر ؛ وخشيت السيدة أن يفاتحك محمد فيما حدث فأحكمت مؤامرتها الشريرة التى كانت سببا فى قطع أواصر الصلات المتينة التى كانت تربطك به ؟

وكنت فى هذه الفترة مأخوذا بنشوة الظفر ، فلم أصغ إلى تقريع ضميرى ،ثم أفقت بعد

ردح من الزمن ، فخشيت أن أعكر صفواً يسود البيت ، فلما علمت بحادث أمس جئتك بهذه الرسالة الجريئة لأفضى إليك بكل شيء :

لقد علمت أنك طردتها من بيتك بعد أن فاجأتها مع صديقك الجديد زكى أفندى فى حال مريبة ، وعلمت من الخادم أن هذا الحادث قد أثار حفيظتك على صديقك القديم «محمد» وأنك ظللت تلعن اليوم الذى عرفته فيه ، لأنك حسبت أنه هو الذى بدأ باغراء السيدة الطاهرة ، وأنها أبت أن تصغى إلى إغرائه ، ولكنها انتبهت بعد ذلك إلى طريق الغواية التى فتح بابها صديقك الوفى .

لا ياسيدى ، إن محمداً صديقك برىء ، أما أنا وزكى افندى فقد كنا نمثل معك دور نذلين ، وقد جازيناك إساءة باحسان ، فاغفر لى أو لا تغفر ، فقد أرضيت ضميرى ، وقدارتحت لاتصالك عنها ، وأردت أن أشرح لك فصول المأساة التى كنا جميعاً أبطالها ، لأنه يجب أن تعرف حقيقة هذه المأساة التى اشتركنا فى تمثيلها :

قل عنى – فى أسلوب صريح – إننى نذل خائن ، كافر بالصداقة والوفاء ، فانى راض بهذه النعوت التى أستحقها عن جدارة ، ولكنى لا أحب لك أن تنخدع فتصف محمدا صديقك الوفى بها ؟

إنى أرضى أن تقول عنى ما تشاء ، ولكنى أريد أن تعرف – بعد ذلك كله – أن صديقك محمدا كان بريئا من كل ما نسب إليه ؟

ك . ك

واجبك ..! هل أديته ؟

إنك ستؤديه بلا ريب ...

أيها الشباب المثقف .!

إن مجلة «المعرفة» سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ، وهى المجلة المصرية التى يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم ، فليكن تعضيدكم إياه مشجعا له ولغيره .. على إحياء القومية المصرية



هذا واجبكم فأدوه



مكتبة المعرفة

بسائط علم النفس

تأليف الأستاذ أحمد عطية الله

من العلوم الحديثة التى نالت شهرة بعيدة وأهمية كبيرة علم النفس ، وهو حديث لأنه لم يتحرر من قيود الفلسفة، مكتسباً صبغة علمية بحتة، ورداء وضعياً يجعلنا نضعه فى قائمة العلوم: كالطبيعة والكيمياء إلا قريباً؛ وهو علم يبحث فى الحياة النفسية للانسان، ولهذا تجد له علاقة بكل مايعمله الانسان ، ومن هنا أهميته والحاجة الماسة إلى تعلمه ؛ ولكننا فى مصر لايصلنا نور العلوم إلابعد أن يضىء أوربا وأمريكا ويبدد ظلام كل جهل فيهما ، حتى ساق لنا القدر الأستاذ «أحمد عطية الله» فأخرج للناس كتابه «بسائط علم النفس» فكان مصباحاً منيراً يهدى القراء إلى معرفة ما كانوا يجهلون من أنفسهم ، وقد تعجب كيف تجهل نفسك التى هى أشد الأشياء اتصالا بك ، ويزداد بك العجب كيف يمهد لك سبيل هذه المعرفة شخص آخر وأنت أدرى الناس بنفسك؟ والجواب على هذا يسير: إذ أن الانسان لايستطلع المجهول ولا يجذب أنظاره إلا الشىء الغريب النابى عن مجرى حياته وعاداته، ولذا كانت أولى الأشياء التى وجه الانسان إليها عقله وتوفر على التفكير فيها هى: الشمس والقمر والنجوم والكواكب التى هى أبعد الأشياء عنا ، وقد ظل الانسان يبحث فى العالم الخارجى : فى خضرة النبات اليافعة، فى الأرض، وفى عجائب الحيوان، ماينفع منه وما يضر ، صادفاً عن النظر إلى داخل نفسه ، حتى فطن سقراط — المعلم الأول — إلى ضرورة دراسة النفس الانسانية أولا، فهى أجدر وأولى من دراسة العالم الخارجى ، ولذا قيل إن سقراط هو أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، أى أول من حول اتجاه أفكار الناس من العالم الخارجى إلى العالم الداخلى النفسانى .

قد كنا إذن فى حاجة إلى من يرسم لنا طريق البحث عن أنفسنا، وقد حاول الكثيرون ذلك ولكنهم مع الأسف لم يرسموا لنا إلا ناحية واحدة من نواحى علم النفس، وهى ناحية التربية والتعليم ، أى دراسة علم النفس من ناحية فائدته فى تربية الطفل ، وعندنا ولله الحمد من هذا الشىء الكثير بفضل مجهود الأستاذ « قنديل » فى كتابه « أصول علم النفس » ؛ ولكن كتاب الأستاذ « عطية الله » بالرغم من اشتغاله بالتربية ، وبالرغم من دراسته لعلم النفس على هذا الأسلوب ، فكتابه محاولة جريئة للتخلص من ربق هذا اللون المحدود ، فتناول علم النفس من ناحية عامة ، وهنا يجد القارىء الذى لايهتم بالتربية ولا يشتغل بها لذة فى تصفحه وفائدة له على وجه العموم .

هذا وقد كنا نود أن يتناول المؤلف الموضوع من جميع أطرافه ، فلا يقصره على بعض

الأبواب ؛ ولعله كان مضطرا إلى ذلك لأنه يتطلب وقتا وجهدا ومالا، لاتتفق والنظرة السريعة التى أراد أن يبسطها فى كتابه ، وقد أهمل دراسة التفكير ، واللغة ، والرغبات ، والميول ، والشهوات ، والشخصية ،وغير ذلك من الأبواب ؛ ونحن فى انتظار كتاب آخر للمؤلف الفاضل يلقى الضوء فيه على هذه النواحى التى لم يشملها كتابه الأول ، فلعله يكون عند حسن ظننا به وعند إشباع رغبة القراء ، ولعله لاينسى أيضا أن ينتخب لكتابه المقبل كثيرا من الصور الطريفة على نسق مافعل فى هذا الكتاب ، فهى مشوقة حقا وجديرة بالاعجاب، ولكنى أتقدم إليه راجياً أن يتحرر من هذه الروح التربيية التى نفذت إلى كتابه بالرغم منه، ولو أنها كانت ضئيلة الكم،وأن يبحث أثر النفس من ناحية اتصالها بالحياة الاجتماعية والأدبية والاقتصادية... أكثر مما فعل ، لأن هذا يهم الجمهور ، ويتصل بحياته ورغائبه وميوله أكبر الاتصال ؟

أحمد فؤاد الأهوانى

الشيخ محمد عبده

بقلم الأستاذ احمد الشايب

أبدع الاستاذ أحمد الشايب المدرس بكلية الآداب فى تجلية هذه الشخصية الشرقية العظيمة فى رسالته المعنونة باسم «الشيخ محمد عبده » وجدير بمثل الأستاذ الشايب أن يطرق مثل هذا الموضوع النافع المفيد ؛ فاننا والحق يقال نشعر بالضرورة الملحة إلى طرقه ، فهنالك كتاب كثيرون عرفوا حاجتنا إلى تحليل الشخصيات العظيمة لنطبع الشباب على قوالبها وأنماطها السامية؛ ولكنهم،ويا للأسف،استقلوا هذه الحاجة فى نهضتنا،ووجهوا قواهم إلى تحليل الشخصيات الغربية فحسب،فهؤلاء إذا شكروا من جهة ، فلا أقل من أن يوجه إليهم بيت المتنبى الشهير .

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وأخيراً جاء الأستاذ الشايب برسالة فى هذه الشخصية العربية العظيمة، فسد هذه الثغرة فى المؤلفين المصريين ، وكمل هذا النقص ، وروى ظمأ الشباب المتعطش لمعرفة رجالات قومه المصلحين، فله منا جزيل الشكر والثناء .

النهضة

أهدى الينا الأديب الفاضل الأستاذ محمد روحى فيصل ، الجزء الأول من « النهضة » التى يصدرها هو ونخبة من الشباب فى حمص؛ وقد تصفحناه فألفيناه من أقوى مايبعث النهضات ؛ فهذا الجزء : حسن فى اختياره ، قوى فى ابتكاره ، عظيم فى مشربه ، نفيس فى أدبه ، فنتمنى للنهضة الذيوع الذى تستحقه فى بلاد الضاد .

التربية النسائية

تأليف السيد عبد الله السقاف

العلامة السيد عبدالله السقاف رجل أقل مايقال فيه أنه منتج، فهو لا يألو جهداً ولا يدخر وسعا فى خدمة قومه ، وهو لا يكاد يقضى فترة من الزمن من غير أن يظهر للناس رسالة أو كتابا متحريا بذلك أنفع المواضيع للناس؛ وفى هذا الكتاب « التربية النسائية » من الاحاطة بالموضوع ما فيه ، ولا شك أن موضوع المرأة هو من أمس المواضيع الاصلاحية حاجة لبلاد الشرق ، وفى وسعنا أن نقرر مطمئنين أنه لا نجاح لهذا الشرق مالم يقرر فيه مركز المرأة .

ولقد برهن الاستاذ السيد عبد الله بن محمد بن حامد السقاف ـ بطرقه هذا الموضوع ـ على أنه من كبار المصلحين ، بل إنه بتوفية هذا الموضوع حقه ، قد برهن على أنه من طليعة أئمة الاصلاح جميعاً فى بلاد المسلمين .

لمحة تاريخية فى الحروب الجندية

تأليف البكباشى عبد الرازق بركات

رغما عن النزعة السلمية ، التى تتردد فى كل وقت الآن فى أكبر مظهرها، وهو نزع السلاح، فان هذا الحديث لايخرج عن التمويه بعقول البسطاء، إذ لايزال الحق للقوة أو كما قال بسمارك لسياسة الحديد والنار؛ ولذا كان حقا علينا أن نثير النفوس لتذود عن بيضة الوطن وترفع رايته فى ساحة القتال؛ وهذا كتاب البكباشى « عبد الرازق بركات » تحت عنوان « لمحة تاريخية فى الحروب الجندية » يجدد لنا هذا العهد ، ويتحدث حديث الباحث المحقق عن السلاح فى عصر محمد على، وما كان لمصر فى ذلك من الشأو البعيد ،ثم هو يتناول الموضوع فى جميع عصوره: فمن اليونان إلى الرومان ، إلى العرب والقرون الوسطى ،إلى نظام الجندية فى الحروب الحديثة؛ فهو يعرض المسألة عرضا تاريخياطريفاً دقيقا ، يدل على سعة اطلاع المؤلف من ناحية ، وعلى الفائدة الجليلة التى يكتسبها القارس من ناحية أخرى ، ثم هو بعد ذلك يردف بيانه التاريخى بالأرقام والاحصائيات الدقيقة مما يجعل لكتابه ـ على صغر حجمه ـ قيمة علمية كبيرة ؛ فللمؤلف منا الشكر البليغ لهذا المجهود الصادق الكبير.

تاريخ اللغات السامية

تأليف جودة حمودة الطحلاوى

اللغة ومنشؤها وتاريخها وقيمتها كلها بحوث عميقة وعرة، بين العلماء عليها خلاف وآراء وجدل ، ويسرنا أن يقوم الشباب الناهض بالاضطلاع بمثل هذه الاعباء العلمية الجليلة،وكتاب الشاب « جودة حمودة الطحلاوى » يدل على جهد فى الاطلاع ، وتحقيق فى البحث ، وعلى

استقصاء للمصادر المتعددة التى تناولت موضوع اللغة عامة ،واللغة السامية خاصة، وهو يعطى القارىء فكرة أولية عن تطور اللغات وأصلها، وعن الأصول التى استمدت اللغة السامية منها أسسها مبتدئا بالبابليين والكنعانيين والعبريين والسريانيين والحبشيين ، مع تحقيق فى دقة، خصوصا تحقيقه لكلمة « كنعان » وكلمة «عبرى» مما يدل على الروح العلمية الجريئة التى تسود الكتاب؛ ولعل المؤلف الناشىء لا يكتفى بكتابه هذا، بل لعله يدرس اللغة العبرية والحبشية نفسيهما، ولعله يرجع لمحاضرات الأستاذ «نللينو» التى ألقاها فى الجامعة المصرية ، فهى ذات قيمة كبيرة فى هذا الموضوع ؛ وأخيرا نشكر للمؤلف الفاضل مجهوده ، وننصح القراء باقتناء هذا السفر النفيس .

التعليم المنزلى

للآنسة فاطمة فهمى

يسرنى أن ألفت نظر قراء «المعرفة» إلى كتاب ظهر حديثا، وهو كتاب «التعليم المنزلى» للآنسة فاطمة فهمى خريجة انجلترا وناظرة المعلمات الاولية بحلوان ، وقد ظهر هذا الكتاب فى وقت نحن فى أشد الحاجة فيه إلى مثله، وهو بحق يملأ فراغا هاما فى حياتنا العائلية، ويعمل على جعل المنزل المصرى مهدا للراحة والاقتصاد والسعادة .

وقد استهلت المؤلفة كتابها بقولها : ـ

« ولو أجلنا النظر بين أعطاف المنازل المصرية وأطرافها لحارت منا النواظر فى المحاجر، لسوء الحال،وفساد النظام، على كثرة النفقات، وهذه نتيجة عدم تعليم البنات فن التدبير المنزلى والاقتصاد » .

وقد عملت المؤلفة على علاج هذا النقص فى كتابها الذى يقع فى ٤٤٨ صفحة بأن بينت كل الامور التى يجب أن تتوفر لتسمو بالمنزل المصرى إلى مستوى المنزل الأوربى من جهة العناية والاقتصاد .

ففى الجزء الاول اهتمت المؤلفة ببيان: كيفية تنظيم المنزل، وتنظيف أثاثه ورياشه، بطريقة علمية اقتصادية ، ولم تكتف بذكر أسماء المواد والأدهنة التى تستعمل فى التنظيف، بل وضحت أيضا كيفية صنعها بالمنزل ابتغاء للاقتصاد .

وفى الجزء الثانى عالجت موضوع الغسل والكى لجميع أنواع الملابس مع بيان خواص الاقمشة وأنواع الصابون، كما ذكرت أفضل الوسائل لحفظ الملابس مدة طويلة مع بقاء رونقها وبهاء جدتها .

أما الجزء الثالث فيعالج موضوع الطبخ باسهاب وايضاح، مع مراعاة البساطة فى تركيب الأطعمة بطريقة توفق بين الذوق المصرى والذوق الاوروبى ؛ كما لم تنس المؤلفة وضع قوائم

للحفلات والولائم، وسهلت لربة المنزل مسألة التفكير اليومى فى إعداد قائمة العشاء والغذاء بأن وضعت بعض الاقتراحات لكل يوم من أيام الاسبوع، مراعية فصول السنة وخواص الاطعمة .

وبالاختصار فان هذا الكتاب يعد بحق أهم الكتب التى ظهرت حديثا، لأنه يعالج موضوعا من أهم الموضوعات الحيوية، إذ يترتب عليه سعادة الاسرة ؛ فوق أنه أول بحث واف متقن فى هذا الموضوع كتب بلغة هذه البلاد . ولا يفوتنى أن أثنى على أسلوب الكتاب والدقة التى روعيت فى اختيار الاصطلاحات وطرق الايضاح وترتيب المعلومات ، والواقع أن المؤلفة نجحت نجاحا تاما فى إبراز صورة وافية لما يجب أن يكون عليه المنزل السعيد المقتصد مما يجعلنا نتقدم إلى المؤلفة النابغة بأخلص التهانىء والتقدير لهذا العمل الجليل متمنين لكتابها ما يستحقه من الرواج .؟

(سيدة)

« المعرفة » لم يصلنا الكتاب

نثر الدر المكنون من فضائل اليمن الميمون

تأليف السيد محمد الأهدبى

كتاب فى موضوعه غاية فى الاقتدار، وفى أسلوبه برهان ساطع على حسن الابتكار، أراد به مؤلفه العالم اليمنى الفاضل السيد محمد بن السيد على الأهدبى الحسينى اليمنى الأزهرى ، أن يجمع كل ماورد من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم خاصا بأهل اليمن، فجاء كتابه أشبه بدائرة معارف خاصة بصقع من أجل أصقاع الاسلام؛ وبعد فهذا الكتاب فوق تبويبه وحسن تنسيقه وتهذيبه ، كله فقه وأدب، فأنت منه تتنقل دائما من تحفة إلى طرفة ، ومن أدب إلى عجب ، وهكذا دواليك إلى آخر هذا الكتاب النفيس الذى يجمع مالذ وطاب، مما يقر الأعين لأولى الالباب.

قائمة مطبوعات مطبعة الهلال

صدرت قائمة مطبوعات مكتبة الهلال حافلة بالكتب التى طبعت فيها ، وننصح القراء باقتنائها لترشدهم إلى مافيه من نفائس المطبوعات الحافلة بشتى العلوم والمعارف المدرسية والعامة كالتاريخ والفلسفه والأدب والجغرافيا وغير ذلك .

المعرفة فى عامها الثانى

ستصدر «المعرفة» —باذن الله— فى الشهر المقبل

فى حلة جديدة لمناسبة دخولها فى عامها الثانى